ماهر أبو السعود

أسطورة شِنِيدَر

رواية

أسطورة شِـنِـيدَر

ماهر أبو السعود: أسطورة شِـنِيـدَر (رواية)

Shnedar

novel by: Maher Abou Elsaoud
email: cairoparis@hotmail.com

الحضارة للنشر

٧ شارع أبو السعود – الدقى ١٢٣١١ – القاهرة
تليفون ٧٦١٩٤٣٩ – فاكس ٧٦٠٥٨٩٨

Al-Hadara Publishing
7 Abou El-Seoud Street
Dokki 12311, Cairo, Egypt

Tel.: (20-2) 761 94 39
(20-12) 316 48 67
Fax: (20-2) 760 58 98

E-mail: ask@alhadara.com
E-mail: hadara@idsc.net.eg
www.alhadara.com

الطبعة الأولى: يناير ٢٠٠٦

رقم الإيداع بدار الكتب: ٢٢٦٩٩ /٢٠٠٥

I.S.B.N. 977-5429-49-8

ماهر أبو السعود

أسطورة شِنِيدَر

رواية

شانبوش

ما الحياة إلا ظرف أحمر

(١)

عندما تَسَلَّم أخينا رقم "٣" الرسالة المنتظرة منذ شهرين على الأقل لم يصدق نفسه، وشعر بارتجاف ورعشة شديدين وهو يفتح الرسالة التى لا تقل غرابة عن أخينا. الظرف أحمر وعليه اسمه وعنوانه بالكمبيوتر وغير مدون عليه اسم أو عنوان المرسل وبداخله ورقة صغيرة مدون بها:

الاختبار الأخير

الرجاء الحضور يوم واحد أكتوبر الساعة الثانية ظهرا.

ملحوظة: أنت رقم "٣" الرجاء حرق الخطاب بعد قراءته.

انتابته سعادة غير عادية، ها هى فرصته الوحيدة المنتظرة منذ زمن طويل قد حانت ولابد الآن من تحقيق الحلم الذى طال انتظاره، دخل إلى الحمام وأحرق الرسالة تنفيذا للأمر. تملَّكَهُ الإصرار فذهب على الفور إلى غرفة نومه، ومن دولابه أخرج مسدسه الكاتم للصوت وتأكد أن الرصاص بداخله، خرج إلى المطبخ، وفى تصميم شديد ظهر على ملامح وجهه المستدير صوَّب مسدسه على بعد حوالى مترين من غطاء زجاجة وضعت على الرف الأعلى، كتم أنفاسه للحظات ثم أغمض عيناً واحدة وأطلق رصاصته فأصاب هدفه بمهارة شديدة، لكنه لم يقتنع بداخله بعد، شعر أنه مازال يحتاج إلى التمرن أكثر وأكثر، ليس على التصويب فقط، بل يحتاج للتمرن على أشياء أخرى كثيرة. كان يدرك أنه الاختبار الأخير وفرصته الوحيدة ولابد ألا تضيع هباءً، هذا حلم تمنى تحقيقه منذ زمن طويل وها هو يقترب من تحقيقه ولم يتبقَّ سوى شهر.

ذهب نحو النافذة وأبصر البناية المقابلة له وشقة جارته ومحبوبة قلبه "نجفة". زجاج نافذته عاكس يستطيع من خلاله أن يرى كل شيء بالخارج ولا أحد يستطيع رؤيته، لقد كلفه عمل ذلك مبلغاً يفوق طاقته المادية، لكن كل شيء يهون من أجل "نجفة" التى لا تشعر حتى بوجوده ولا تعرف عنه شيئا سوى أنه أبكم ورجل غريب الأطوار كما يطلقون عليه بالحي.

أخينا رقم "٣" يعيش فى شقة صغيرة فى حى "الحسينية" القريب من ميدان الجيش، فى أواخر العقد الثالث من عمره، وسيم ويحلق شعر رأسه على الزيرو يوميا فيعطى ملامحه الجدية والحدة معا، دائما ما يرتدى بنطلون جينز وتى شرت أبيض وأحيانا جاكيت بذلة أنيقة. يتيم، توفى أبوه قبل ميلاده وأمه بعد ميلاده، ورباه عمه تاجر المواشى وعمل معه فى صباه حتى تطوّع بالجيش المصرى، وهناك تعلم القراءة والكتابة والرماية، وكانت مهارته تكمن فى سرعة استخدام السلاح والتصويب. عندما أصيب بالبكم إثر حالة نفسية خرج من الجيش وأصبح له معاش بسيط يعيش منه. ولكن مهارته فى استخدام السلاح لم تتراجع بل أصبح أكثر براعة.

أبصر زوج نجفة يجلس فى الشرفة يدخن نرجيلته بفانلته البيضاء الحمالة وبنطلون بيجامة وأمامه قطع من شرائح البطيخ المثلج والأطفال بالداخل يلهون. أدرك أن نجفة غير موجودة فى المنزل، شعر برغبة قوية أن يرى وجهها الصبوح قبل أن يغادر منزله، ينتظر اللحظة الحاسمة لخطفها والعيش معها فى أمان أو على الأقل توفير السعادة لها. خرج إلى الشرفة وكان طقس هذا اليوم حاراً جدا، أغلق باب الشرفة بسرعة حتى لا يدخل الذباب إلى شقته. لمحه زوج نجفة فأدار وجهه للجهة الأخرى وشعر بعدم ارتياح.

أخينا لا يعطى الفرصة للآخرين للشفقة عليه. قبل أن يكون أبكم كان قليل الحديث، يعيش وحده فى شقته ولا يرغب من الحياة سوى نجفة أو سعادتها معه أو مع رجل آخر إذا رغبت. حبه لها بمثابة تمسُّك بالحياة والأمل معا. هو لا يستطيع أن يتخيل الحياة بدونها. يعشقها كما يعشق النحل الزهور. أبصر الشارع والناس تحته لا يطيق بعضهم البعض ولا حتى أنفسهم وذلك بسبب قسوة حرارة الطقس وكأنهم ابتدعوا سبباً يُعبّرون من خلاله عن غلاء المعيشة وقسوة الظروف والمعاناة التى يمر بها البلد، بدوا له كالذباب الذى ينطلق فى يوم حار. لمحها تقف فى مؤخرة طابور الخبز الطويل أمام "مخبز كِشْك". أشفق على حالها وهى ترتدى جلبابها والطرحة السوداء فوق شعرها السايب الجميل أخذ يتأمل فى جمالها ووجهها الأبيض المائل إلى الاحمرار وثدييها البارزين وجسدها الرشيق المتناسق، ورغم أنها تدارى جمالها تحت هذه الملابس البسيطة المحتشمة إلا أنها ما زالت فلتة من الجمال.

نجفة فى أواخر العقد الرابع من عمرها، توفى زوجها الأول منذ عشر سنوات وترك لها ثلاثة أطفال، أحبته بشدة، كان يخشى عليها من لفحة الهواء الطاير، عاشت معه أسعد أيام حياتها، تنهدت بشدة وهى تتذكر تلك الأيام الجميلة وهى تقف فى طابور الخبز، ودت من صميم قلبها أن تعود هذه الأيام.

لمحها "مصطفى كِشْك" صاحب المخبز وهى تقف فى نهاية الصف، غمز لها بعينيه، فتجاهلته كالعادة وأدارت وجهها للجهة الأخرى، لقد تعودت على هذه المعاكسات والمضايقات من رجال أهل الحى منذ وفاة زوجها، رغم أنها تزوجت من أحد أقاربه لأنها لم تستطع مواجهة الحياة وحدها وأرادت أن يقف بجوارها وبجوار

أطفالها الثلاثة رجل يوفر لهم سبل العيش ومواجهة الحيـــاة معـــا، ولكنها اكتشفت بعد الزواج أنها وقعت فى حضيض أشد عمقا مما كانت فيه. هو ضعيف الشخصية ويعمل لمصلحته فقط ولا يرعى منـــزله وشئون أولادها ومتزوج من امرأة أخرى، وأصبح يتردد على نجفة يوماً أو يومين فى الأسبوع عندما يرغبها جنسيا.

مر وقت طويل حتى وصلت نجفة لبداية الطابور، شعرت خلالها بمضيعة الوقت والطاقة معا لأبسط حقوقها كإنسان. رغم ضـــعف شخصيتها وفقرها إلا أنها مازالت شرسة وخصوصا عندما تقـــوم مشاجرة على حق من حقوقها، والنساء يغرن منها بطريقـــة غـــير عادية لأنها مَثَلٌ يُضرب لهن فى الجمال. أخينا رقـــم "٣" مـــازال يتابعها بنظرات الحب والشفقة معا من تحت نظارتـــه الشمســـية السوداء، يشعر بألمها وطيبة قلبها معا وأنها تستحق حياة أفضـــل. عندما لمحها المعلم كشْك قد اقتربت من بداية الصف، ابتدع سبباً للمشاجرة معها ومضايقتها وسألها أن تذهب إلى نهاية الصف مـــرة أخرى. لم يستطع أخينا لِبُعْدَ المسافة أن ينصت ويعـــرف ســـبب الخلاف. فأخذ يراقب ما يدور بينهما بحذر شديد متمنيا بداخله أن تنجو نجفة من الأذى. وعندما اشتد العنف فى الحنـــاجر وتـــدخل بعض النساء الفاجرات الغيورات من فرط جمالها وحدثت مشاجرة نسائية كلامية بصوت عالٍ – نهض زوجها من كرسيه نـــافراً إلى داخل الشقة وبدَّل ملابسهً مُجهِّزاً نفسه للهرب. فى تلك اللحظة ود أخينا أن يبصق عليه، وشعر بألم شديد وكأنه أهين فى كرامتـــه. تطاولت الأيدى ووقعت طرحة نجفة السوداء من فـــوق رأســـها، وبدت بشعرها السايب الطويل آية فى الجمال، قاومـــت بشـــدة، ورغم ذلك طرحوها أرضاً فأخذت تقاوم بكل ما تملك من قـــوة،

تمزقت ملابسها قليلاً، وتوقف بعض الرجال للمشاهدة والتمتع بالنظر إلى جمال نجفة أكثر من متابعة المشاجرة نفسها، مثل هذه اللحظات لا تتكرر لهم كثيرا، البعض الآخر شعر بالمهانة، لكنهم لم يتدخلوا واكتفوا بالشفقة على حالها. أخينا وَدَّ من صميم قلبه أن يستخدم سلاحه الكاتم للصوت فى هذه اللحظات، ولكنه تماسك مع نفسه عندما تدخل الشيخ يونس وأوقف المشاجرة وساعدها فى لَمّ حوائجها وقام بتوصيلها حتى باب البناية وهى تعدل من ملابسها ووعدها بأن يوصل الخبز لمنزلها، ومضى فى سبيله داعياً للحارة بالهدى.

على باب البناية تقابلت مع زوجها الذى صوَّب لها نظرة غيظ وقرف. فبادَلَتْهُ نفس النظرات وسألته فى غيظ واستغراب وأخينا من أعلى يراقبهما وينصت لهما:

– إلى أين أنت ذاهب؟

– إلى العمل يا ست نجفة.. كل يوم تثيرين المشاكل مع أهل الحي. اعلمى أننى لست بفتوة وليس باستطاعتى أن أتشاجر مع أهل الحى أو أى حى آخر.. لابد وأن تفهمى أن ظروفنا المادية سيئة للغاية ومنزلنا يحتاج لكثير من الإصلاحات سببها زوجك الراحل.. ولابد أن تصبري.. وتكُفّى عن المشاكسات.. وتقبلى الحال على ما هو عليه لأن الأيام القادمة أسود من الخروب.

تركها ورحل، فشعرت بالخيبة القوية والحسرة الشديدة على نفسها وحظها الأكثر سواداً ومضت إلى شقتها مستسلمة لأمرها ومُدركة أنها لا تأخذ منه سوى هذه الكلمات المحبطة. أبصر أخينا زوجها واستمع له وهو يسير فى طريقه معتذرا للآخرين عن غباء زوجته.

امتلكه الغضب والغيظ معا، ودخل إلى شقته متأثراً ومتحسراً على ما رأت عيناه، شعر برغبة قوية فى التغيير. أغلق باب الشرفة بحكمة شديدة ليتأكد من عدم دخول الذباب إلى داخل شقته، تحركت فى أعماقه موجة من التمرد وأصابه حماس شديد أن يفيق لنفسه، فانصبت بداخله قوة لا يعلم من أين أتت، وكان خارج شقته عالماً آخر يختلف تماماً عن عالمه بالداخل. ذهب إلى الحمام ووضع رأسه تحت حنفية المياه الباردة لدقائق معدودة وكأنه متعطش لمثل هذا العمل منذ زمن طويل. بعدها وضع الفوطة على رأسه وأخذ ينشف نفسه وعندما أزاح الفوطة وجد نفسه وجهاً لوجه أمام المرآة، اختفى ذلك الشخص الذى كان يعرفه من ثوان فائتة، اختفى وحل محله رجل قوىٌّ، جبّارٌ، لا يخشى أحداً ولا يبالى شيئاً. لم يدرك فى تلك اللحظة ما سر هذه القوة المفاجئة التى انتابته؟ هل جعلته الرسالة أكثر قوة، أم إهانة محبوبته نجفة جعلته يفيق لنفسه، أم أنه بالفعل أصبح إنساناً جديداً؟ جهز نفسه للذهاب إلى النادى والتمرن على سلاحه، وقبل أن يغادر المنزل ذهب إلى النافذة ولمح نجفه تجلس على كرسى خشبى وتبكى بشدة. فتأثر وارتسمت على ملامحه علامات الحزن والأسى، حمل حقيبته على كتفه وكأنه يحمل على عاتقه معاناتها وصبرها.

(٢)

عِندما تَسَلَّم المعلم كشْك صاحب المخبز البلدى الظرف الأحمر وعليه اسمه وعنوانه والمُرْسِل مجهول فتحه ووجد رسالة تقول:

تحذير أول: لا تتعرض لنجفة مرة أخرى ولا تجعلها تقف بالطابور وأعْطِ لها ما تحتاج من الخبز الطازج الذى تأكل منه. وإن لم تفعل

ذلك فسوف يتعرض المخبز للأذى ومن بعــده أنــت أو أحــد أسرتك.

ملحوظة: إياك وأن تبلغ أحداً بهذه الرسالة حتى أقــرب المقــربين لك. من الأفضل حرقها بعد قراءتها.

فى البداية ظن مصطفى كِشْك أن أحد أصدقائه يداعبه أو ربمــا نجفة نفسها كتبت هذه الرسَالة وتهدده، ولكنه أدرك أن لا خوف منها فهى ضعيفة ولا حول لها ولا قوة.

المعلم مصطفى كِشْك مشهور بالحى بأنه ميسور الحال، ويعشق النساء ومغازلتهن، وعندما تبتسم له إحدى النساء يطلب منها أن تدخل إلى حجرة المكتب خلف المخبز لمساعدته، ويمــارس معهــا شذوذه، يعشق هذه الدقائق المعدودة، أن تدخل امرأة إلى الحجرة ويطلب منها أن تنحنى على مكتب خشبى قديم ويلامس بقضــيبه مؤخرتها دون أن يخلع أحدهما ملابسه ويدعك بيديه ثدييها، وبعد دقائق معدودة يقذف فى ملابسه ويسألها الرحيل. وبــالطبع وقــع أضحوكة للنساء الفاجرات فى أوقات فراغهنّ، يسخرن منه لأنــه لا يعطيهنّ المزيد من طلب الشهوة. والمرأة التى لا تريد أن تقف فى الطابور وتريد الخبز الطازج ما عليها سوى أن تبتسم وتدخل إلى غرفة مكتبه لمساعدته. كانت نجفة إحدى ملهماته منــذ أن تــوفى زوجها، تقف فى الطابور دون أن تبتسم مثل الأخريات، حــاول كثيراً ولكن باءت محاولاته بالفشل. فأصبح يقسو عليها ويبتــدع الحجج ليوقفها فى الطابور أكثر من اللازم حتى تخضع لمطلبه ولكن دون فائدة تذكر.

عندما لمحها تقف فى نهاية الصف ذهب على الفور نحوها وقــال بكل وقاحة وسخرية:

- استلمت خطاب غرامك!

لم تفهم مقصده ثم استطرد بجدية:

- اذهبى واشترى خبزك من مكان آخر.. أنت امرأة خبيثة.

استغربت الأمر ولم تعِ بالضبط ماذا يقصد، فوقفت متسمرة فى مكانها فقال لها:

- ارحلى من هنا يا امرأة.

ردت بكل جرأة:

- أنا لا أخذ الخبز مجانا.. وأنت رجل عاهر.

وجدها فرصة طيبة لكى يلامس جسدها الطري، فأخذ يدفعها من ثديها متظاهراً بأنه يطردها من محله، دفعت يده بشدة قبل أن يصل إلى باقى جسدها وخلعت الشبشب ورفعته على أهبة الاستعداد للمقاومة. وتدخل البعض لتهدئة الحال، وانصرفت وهى تلعنه وتلعن الحياة التى أوقعتها فريسة للأوغاد، ورحلت غاضبة تبحث عن مخبز آخر.

أخينا رقم "٣" كان يجلس عند صديقه "صابر الفسّ" صاحب محل الكفتة والكبدة، محل صغير وبداخله منضدة وأربعة كراسى خشبية، وصورة بالأبيض والأسود لممثلة الإغراء القديمة "كاميليا" موضوعة فى برواز يبدو أغلى من أى شىء آخر فى المحل. وعلى باب المحل يقف صابر أمام "الشواية" وهو يمسك الأسياخ بيد وبالأخرى مروحة من الريش لإشعال الفحم.. المحل مقابل مخبز كشك وعرنوس الجزار.

صابر الفسّ فى العقد الخامس، طويل وشعره منكوش متناسق مع وجهه المستدير، وسيم بلا أدنى شك، الابتسامة لا تفارق وجهه وكأنها جزءٌ منه فتُضفى على وسامته طابعاً خاصّاً. لا يخجل من

مغازلة النساء بصوت عالٍ ولا أحد يأخذه مأخذ الجد لخفة روحه وظله. وكثيرا ما تجد بعضَ النساء يقصدن الذهاب والإياب أمام محله ليسمعن منه الكلام المعسول ثم يقلن له فى دلال:

– يخيِّبك يا فسْ.

صابر الفسّ محبوب من أهل الحى، الرجال والنساء على السواء. وغالبا ما يأتى إليه المتألمون والمكتئبون قاصدين عنده نكتة أو سماع شيء ما يضحكهم. من أعز أصدقائه الشيخ يونس، وغالبا ما يحذره ويقول له:

– احترس يا فسّ، هناك بعض الناس يحاولون سرقة السعادة منك.

من أشهر أقوال الفسّ التى غالباً ما يرددها بصوت عالٍ "خش على الملوه" وحقيقة الأمر لا أحد يعرف بالضبط ماذا يقصدُ الفسّ بهذه المقولة. واحتفظ لنفسه بالسر، ولكنها أصبحت عادة للمقلدين وعديمى الشخصية يرددونها عندما يرون شيئاً جميلاً أو امرأة فاتنة.

صابر الفسّ رحلت زوجته كاميليا منذ خمس سنوات بعد أن أنجبت له طفلاً جميلاً، لقد كانت قصة حبهما عجيبة ويضرب بها المثل فى الحى للكوميديا والتراجيديا معا. كانت فتاة جميلة من أسرة ثرية تعيش فى حى مصر الجديدة فى فيلا أنيقة مع أبيها وأمها وأخيها الذى كان وجوده نادراً مع الأسرة لكثرة سفره، خريجة آداب قسم فلسفة وكانت فتاة خفيفة الروح متواضعة وعضوة نشطة فى اتحاد الطلبة وتؤمن بحرية المرأة واستقلالها، لكن إيمانها بحرية المرأة لم يتعدَّ على حقوق الرجل نفسه أو الكراهية له فكانت تؤمن إيماناً تاماً بالحب والاحترام المتبادل والحقوق والواجبات لكل منهما، وكانت مسيرتها معتدلة إلى حد كبير.. وليست مثل فتيات

ونساء كثيرات انضممن إلى جمعيات مختلفة، كرهاً للرجل وبدوافع شخصية أو نفسية وليس إيمانا بقضية كبرى ذات حساسية.

ويوماً من هذه الأيام التاريخية فى سجل حياة كاميليا، عندما مرت بسيارتها من أمام محل الفسّ وسمعته يقول جملته المشهورة "خش على الملوه" توقفت على الفور وخرجت من سيارتها دون أن تغلق الباب، وهو لم يصدق ما رأت عيناه من جمال. وبخفة دم تتناسب مع فيلم من أفلام المرحومة سعاد حسنى قالت له وهى تبتسم ابتسامة عريضة:

– أنا عايزة أكل كفتة.

وأخذ كلاهما ينظر للآخر فى حب وهيام من أول نظرة، وتعطل سير المرور فى الشارع الصغير بسبب سيارتها، فأخذت آلات تنبيه العربات تصرخ فى صوت عال، حتى فاقا لأنفسهما.

وتكررت الزيارة عدة مراتً حتى أصبحت تتردد عليه بشكل شبه يومى وتأكل عنده مع بعض الطلبة. الغريب فى أمر الفسّ أن جميع أهل الحى كانوا يحبونه، الشرير منهم قبل الطيب يتمنى له الخير، فهو رجل ابن بلد، يقف بجوار أهل الحى وقت الشدة ويساعد المحتاج. ورغم أنه كان دائماً يعاكس النساء، ولكن ظهرت حقيقته وخيبته القوية عندما وقع فى الحب مع كاميليا فبدا عندئذ خجولاً كالطفل، وهادئاً، ولم تفلح معه إرشادات وتعليمات الشيخ يونس وبعض أهالى الحارة الطيبين بالإفصاح عن حبه لها، وعندما يئست كاميليا التى كانت تنتظر منه كلام الحب المعسول، توكلت على الله وأعربت له عن حبها الشديد ولكنها لم تطلب يده، فوفر عليها ذلك وقال:

- العين لا تعلو على الحاجب.. وإذا أردت يا بنت الحلال.. تجلسي في منزلي عزيزة كريمة وَلَكِ ما تشائين.. فأنا تحت أمرك.

وافقت على الفور بعد أن عانت آلام الحب وأعراضه. وبالطبع عندما صارحت أهلها بهذا الحب الطبقي انقلبت الحياة رأساً على عقب في منزلها، ورفض أهلها، قبل أن يعلموا عنه شيئا. فلمت حوائجها في هدوء تام وذهبت إليه لتتزوجه، فأجلسها في منزله مع أمه، وذهب (كواحد من أهل البلد الجدعان) ومعه الشيخ يونس ليطلبا يدها، ابتسم الأب ابتسامة خفيفة وقدم لهما الشاى وجلس أمامهما، ابتسمت الأم هي الأخرى ابتسامة خفيفة وقدمت لهما بعض الحلوى وجلست بجوار زوجها، استبشرا خيراً، وبينما هما يشربان الشاى ويأكلان الحلوى - وقبل أن يتحدث الشيخ يونس ويفتح فمه (في المهر والشبكة والذى منه) - دق جرس الباب وظهر ضابط شرطة، وأخذهما على أقرب قسم وباتا ليلتهما السعيدة في التخشيبة، وستر الله عليهما وتم عمل محضر "تحرِّى" فقط.

ثم ذهبوا وأخذوا كاميليا بالعنف من منزل الفسّ، فزاد حبها للفسّ واستوى وقالت لنفسها "لقد أظهر الفسّ رجولة حقيقية، سوف أثبت أنا الأخرى أيضاً حسن نوايا" فتخلت عن جمعية حقوق المرأة المهضومة بعد رؤيته وهو خارج من التخشيبة.

لم يمر شهر وتكرر المشهد (كلاكيت ثاني مرة) باختلاف بسيط، فعندما ذهب الفسّ والشيخ لإقناع الأب والأم، وقبل أن يخطو الشيخ داخل المنزل قال:

- لا داعي للبوليس والتخشيبة وكلام من هذا القبيل.. لقد حضرنا لنتحدث بطريقة متحضرة.

فقدم الأب القهوة بابتسامة خفيفة وكذلك فعلت الأم، قدمت الحلوى بابتسامة خفيفة وجلسا أمامهما، ودق جرس الباب، وكانا شخصين كالذين نراهم فى مصارعة المحترفين، وأخذ كل منهما فريسة فى يده، ذهبا معهما دون أى مقاومة تذكر، وفى صحراء أهرامات الجيزة جرَّداهما من كل شيء وتركاهما فى الصحراء، حتى عثر عليهما أولاد الحلال قبل أن يأتى عزرائيل لزيارتهما ببضع ساعات.

عاقبت كامليا الأم والأب أشد عقاب (إضراب عام) لا أكل ولا شرب ولا حتى ذهاب للجامعة. فذهب الأب متأثرا برواية غادة الكاميليا باختلاف نوع الجنس (الابنة وليس الابن) وعرض على الفسّ أموالاً لكى يبتعد عن ابنته الوحيدة فرد الفسّ قائلا:

– أنتَ تأكل كفتة وكبدة وتشرب شاى وتتوكل علَى الله.. لولا أنك فى الحى عندى وأبو أغلى مخلوقة على الأرض لفعلت معك أشياء وأشياء.

وعندما تكرر المشهد لثالث مرة، ذهب الفسّ إلى الشيخ يونس وتوقع الأخير أن يطلب منه مرافقته لزيارة أهلها مرة أخرى، لكنه طلب منه أن يعقد قرانهما، وتزوجا، ويئس الأب والأم وتركا الابنة تفعل ما تشاء بعد أن حرموها لذة المال، ولكنها لم تُبَالِ بذلك، لقد حققت حلم حياتها وتزوجت من أحبت بشدة.

ولم تمرّ شهور على الأب والأم وانتابهما هذا الشعور الذى يؤلم أحيانا، فذهبا للاطمئنان على ابنتهما وتوقعا أن الفسّ سوف ينتقم منهما على ما فعلا به فى الماضي، لكنه بدا على العَكس تماماً، رحب بهما مع الشيخ يونس وأوصلهما لشقة كاميليا التى بدت لهما أسعد مخلوقة على الأرض. وتصافت القلوب وعرض الأب

على الفسّ أموالاً ليفتح له محلاً كبيراً فى حـى أرقـي، فرفضـا، وعرضت الأم أموالاً على ابنتها لشراء أثاث منـزل أفضـل أو ملابس جديدة، فرفضت، وشعرا أن ابنتـهما تعـيش فى سـعادة مطلقة، وبالفعل كانت سعادتها مع الفسّ لا تقدر بالجواهر. وأخذ الأب والأم يترددان عليهما باستمرار حتى توطدت العلاقة بينـهم وأصبح الفسّ بالنسبة لهما ابناً. وأنجبا طفلاً جميلاً أحباه أكثر مـن الفسّ وكاميليا نفسهما.

بقيا هكذا حتى لعب القدر لعبة خبيثة وأغلـق السـتار علـى الأحداث السعيدة، ومن حيث لا تعلم أصابها المرض الخبيـث ولم يمر ستة أشهر ورحلت عن الحى للأبد. حزن حزناً شديداً عليهـا ولكنه فى نهاية الأمر سلم أمره لله إيماناً بالقضاء والقـدر، وتحـت ابتسامته الحالية يخفى حزناً شديداً.

ومنذ وفاتها لم يتزوج، وعندما يتهمه شخصٌ ما بأنه يحب النساء ويغازلهن، يقول له بصوت عال:

– هؤلاء لسن نساء.. المرحومةُ وحدها تساوى كل نساء العالم.

(٣)

كان أخينا يجلس على باب محل الفسّ، والأخير يحبه لأنه مستمع جيد ولا يتحدث، وأخينا يجلس عندهُ لأن نجفة أحيانا تسـير مـن أمامه ويغازلها الفسّ فتبتسم فيرى ابتسامتها.

وبالفعل مرت نجفة أمامهما والحزن مرتسم على ملامحها، حـتى عندما غازلها "الفسّ" لم تبتسم كالعادة فسألها "أن تأتى وتعرب له عما يزعجها" فاقتربت منهما وأخينا ينصت ويراقـب تعـبيرات وجهها وهى تقول:

- كشك.. الله يخرب بيته لا يريد أن يبيع لى الخبز.
- هذا هو ما يحزنك!!
مد يده على قفص الخبز وأعطاها عشرة أرغفة طازجة وسألها أن تبتسم. فقالت متسائلة:
- وأنت.. ماذا تفعل؟
ابتسم وقال فى سخرية:
- لا تقلقي.. سوف أجعل أمه أو زوجته تأتى لى بالخبز الطازج.
شكرته ورحلت وهى تبتسم، فقال فى صوت عالٍ:
- خش على الملوه يا بقر.
فى المساء شب حريق هائل بمخبز كشك، أخذ يصرخ ومعه أهل الحى محاولين إخماد الحريق. وبالطبع حضرت المطافى بعد ساعتين من إخماد الحريق. جلس مصطفى كشك أمام المخبز مهموماً واضعاً يديه على رأسه ومطأطئاً إلى الأرض وكأنه تلميذ خائب رسب فى امتحانه، أدرك أن هذا الحريق سوف يكلفه الكثير.. سمع أحد المارة يقول لصديقه فى صوت خافت:
- هذا ذنب المسكينة نجفة.. لقد صبت عليه لعنتها.
تذكر الظرف الأحمر الذى تسلمه هذا الصباح، عاد إلى منزله بسرعة وأخذ يقرأ الرسالة مرة أخرى بكل جدية. عندما حضر البوليس لم يخبرهم بهذه الرسالة، لقد كان عقله مشغولاً من هول المفاجأة، فكر فى الأمر وتساءل مع نفسه: هل يبلغ البوليس أم لا. ولكنه أدرك أن مطالب الرسالة بسيطة للغاية ولا تستحق حتى التبليغ عنها، خشى من عواقب وخيمة هو أجبن من مواجهتها.
فى الصباح أخذ عمال التصليحات يعملون بكل جدية وسرعة، ورغم ذلك لم يغلق المخبز أبوابه ولكنه بالطبع لم ينتج سوى نصف

ما كان ينتجه يوميا، فاشتد الزحام أمام المخبز فسد الناس الطريق، كان أخينا رقم "٣" يجلس مع الفسّ أمام دكانه المقابل للمخبز منتظرا وصول نجفة، يراقب ما يدور حوله من تحت نظارته الشمسية السوداء، لمس جيب الجاكيت لمسة خفيفة ليتأكد من وجود مسدسه، كان على أهبة الاستعداد لعمل شيء جنوني.

المعلم كشْك أخذ يسير بين زبائنه ويتودد إليهم ويطيب من خاطرهم لطول الانتظار، وفى حقيقة الأمر كان يبحث فى وجوه الموجودين عن نجفة، لقد جهز لها قفصاً كبيراً من الخبز الطازج المخصوص، وعندما لمحها تخرج من منزلها طلب من صبيه أن يأتى بقفص الخبز من الداخل ويسرع خلفه. كانت لا تنوى الذهاب إلى المخبز، اتجه نحوها، والصبى يهرع خلفه حاملاً قفص الخبز على رأسه، فتقابلا فى منتصف الطريق، وأخينا على بعد خطوات يراقب بحذر شديد، قال المعلم كشْك بتوسل:

– سامحينى يا ست نجفة.. لقد أخطأت فى حقك، سوف أرسل لك الخبز كل يوم مع الصبي.. ولا تحملى هَمًّا من اليوم ولا أريد ثمن الخبز.

تعجبت من الأمر، ولكنها وجدتها فرصة طيبة سوف توفر عليها عناء الانتظار والجهاد كل يوم فى سبيل الخبز، فارتضت الأمر وقالت متسامحة:

– عفا الله عما سلف.. وفى النهاية نحن أهل حى واحد.

أعطت الصبى ثمن الخبز، ألح المعلم كشْك عليها ألا تدفع، وتكون هذه هدية بسيطة لبداية مودة جديدة، ولكنها رفضت بشدة، أخذت نفساً طويلاً وتساءلت مع نفسها: "ماذا حدث، هل انقلبت الدنيا رأساً على عقب؟" أخذت تقلب الأفكار فى رأسها

ولكنها لم تجد سبباً مقنعاً تحلل به ما حدث، فتركت أمرها لله الذى قد أنعم عليها بعد صبر طويل. ابتسم أخينا رقم "٣" وشعر بارتياح شديد ورحل قاصداً طريقه.

مر يومان والمعلم كشك يرسل لها كل صباح مع صبيه قفصاً من الخبز الطازج، ولاَ يبالى إذا دفعت ثمنه أم لا، ولكنها كانت تصر على دفع ثمن الخبز حتى تقطع الشك باليقين، وخاصة من سلاطة لسان بعض نساء الحى وسمعة المعلم كشك السيئة. وبدأ يتملك الحقد والحسد والغيرة من نساء أهل الحى تجاه نجفة، ولكنها أصبحت لا تبالي، ما تَوَفَّر لها هو أبسط حقوقها اليومية، وشعرت بإنسانيتها لأول مرة.

(٤)

فى صباح هذا اليوم اشترت نجفة اثنين كيلو لحم من المعلم عرنوس جزار الحي، وعندما عادت لمنزلها اكتشفت أن نصف اللحم من العظم والنصف الآخر تعترض على أكله كلاب الشوارع. فانزعجت كثيرا وقررت أن تعود بسرعة للمعلم عرنوس. لقد جرت العادة أن تدخر من مصروف البيت لمدة شهرين أو أكثر حتى تستطيع شراء اللحم لأطفالها. وإن لم تستطع تستخدم الحيلة النسائية مع زوجها عندما يرغبها، فترفض مضاجعته حتى تنال ثمن اللحم، فتشعر وكأنها تبيع لحمها من أجل إطعام أطفالها اللحم.

المعلم عرنوس فى منتصف العقد الخامس من عمره، مشهور فى الحيّ بالمعلم جاموس.. حقيقة الأمر أنه لا يعلم بذلك، لا أحد يجرؤ أن يقول له إن شخصاً ما يلقبه بهذا اللقب. فى شبابه كان وسيماً

ناصع البياض ويرتدى جلباباً أبيض وطاقية بيضاء وجسده من أجساد أبطال الملاكمة، ومن كثرة أكل اللحوم أصبح يسير فى الشارع كالفيل، معروف عنه أنه يدخن الحشيش بشراهة وأحياناً يشرب الخمر. والمعلم عرنوس عالم خاص فى الإجرام رغم أن مشاجراته معدودة على أصابع اليد، لا يعرف القراءة والكتابة، ومتقلب المزاج وخاصة فى الصباح، يجلس على كرسيه أمام المحل ويدخن نرجيلته ولا يتحدث مع أحد لمدة ساعة على الأقل حتى يفيق، وإذا ألقى أحد السلام لا ينطق، فقط يهز رأسه، والويل لمن يخطئ فى الصباح من عماله أو من أهل الحي، حدّته وغضبه المرتسمان على ملامح وجهه جعلا أهل الحى بأكمله يخشون أن يدخلوا معه فى جدال، زاد على ذلك أنه صديق "شنيدَر" مجرم الحي، كان هذا وحده كافياً لرعب أهل الحي. غالبا ما يجلس بعد انتهاء العمل بداخل المحل ويدخن الكيف مع بعض أصدقائه. فى المواسم والأعياد يعلق الزينة أمام المحل ويشغل ميكروفوناً مزعج الصوت لأغانٍ هابطة ولا أحد يجرؤ أن يعترض من أهل الحي.

متزوج من ثلاثة نساء ليس حباً لهن ولكن لرغبته الشديدة فى إنجاب الصبي، لديه أربع بنات من الأولى والثانية وعندما أنجبت له الأخيرة صبيّاً منذ أربع سنوات طار من الفرح وذبح أربعة عجول لأهل الخير، وأصبح الطفل مدللاً ويلبى له كل مطالبه حتى قبل أن يهمس بها.

عندما وصلت نجفة إلى محله ومعها كيس اللحم لم تدرك أنها اختارت وقتاً غير مناسب، لقد كانت فى ذهول شديد وودت أن تعرب له عن عدم رضاها.

كان أخينا رقم "٣" يجلس فى دكان "الفسّ" المقابل لمحل المعلـــم عرنوس الذى كان يدخن نرجيلته ويبدو مُعكَّر المزاج. قالت له فى أدب شديد:

– يا معلم.. اللحمة كلها عظم.

ثم فتحت الكيس ليرى بنفسه، ولكنه تجاهلها تمامـــا وقـــال فى استنكار شديد وهو يدير وجهه للجهة الأخرى:

– يا فتاح يا عليم.

– منذ شهرين وأنا أدخر ثمن هذا اللحم.. وهذا لا يرضـــيك يـــا معلم.

نظر إليها باحتقار شديد وكأنها حشرة لا قيمة لهـــا فى عالمـــه، وبغضب شديد وبصوت أجش:

– ارحلى من هنا على الصباح.

– هذا ظلم.

فنهض من مكانه والشرر يتطاير من عينيه، فارتعدت وفرت من أمامه بسرعة تاركة خلفها كيس اللحم وقال فى استنكار شديد:

– ما هذه البلوى على الصباح.. امرأة لعينة ونســـاء فـــاجرات يعتقدن أن الحياة سهلة.

صابر الفسّ كان يتابع الحدث مع أخينا فقال فى غيظ شديد: "يا مصبر الوحَش على الجحش".

فى اليوم التالى استلم المعلم عرنوس الظرف الأحمر. وبما أنـــه لا يمت للعلْم بصلة استدعى صبيه (مشهور فى الحى بوكالـــة أنبـــاء متحركةَ) لقراءة الرسالة.

تحذير أول: المطلوب منك أن تبيع اللحم لنجفة بسعر التســـعيرة، ولا تغش فى الميزان، وأن تعطيها من اللحم الذى تأكل منه يا معلم

"جاموس". وأحذرك.. لا تتعرض لها أو لأحد من أهـــل الحـــي، واعلم جيدا أنك إذا أخبرت أحداً بهذه الرسالة فسوف تتعـــرض للأذى أو أحد من أسرتك.
أرجو أن تأخذ هذه الرسالة مأخذ الجد.

انتفض المعلم عرنوس ونهض من مكانه وكأن خازوقاً اختـــرق كرسيه، وارتسمت على ملامحه علامات الغضب، وعقله المحـــدود لم يستوعب أن أحداً فى هذا العالم يستطيع أن يهدده، فر الصبى من أمامه كالبوم عندما يرى الضوء، رفس بقدمه النرجيلة بكل عنف وغضب فتحطمت إلى قطع صغيرة، ارتعد العمال مـــن مظهـــره وتمثلوا فى مكانهم كتماثيل العهد القديم لبضع ثوان، وعندما التَفَتَ نحوهم تظاهروا جميعاً بالعمل الجاد. سحب ساطوراً وسار بســـرعة فى اتجاه منـــزلها، وأخينا رقم "٣" يتابعه على بُعْد عدة أمتـــار. فى طريقه إليها أخذ يصرخ بصوت عالٍ ويسب ويلعَن وخلفه زحـــام شديد من أهل الحى محاولين تهدئته والاستفسار عما حدث. عندما وصل إلى مدخل عمارته، ذهب واحد من أهل الحـــارة الطيـــبين بسرعة فى استدعاء الشيخ يونس.

(٥)

"الشيخ الكئيب الجاد يضر بالدين أكثر مما ينفعه" هكـــذا يقـــول الشيخ يونس لأهل الحي، ويبرر ذلك قائلا إن الشيخ لابـــد وأن يكون متحرراً من كل عقدة شخصية وكآبة، وإن الدين الإسلامى بسيط وسهل وكذلك الحياة إذا أردنا الدنيا والآخرة معا.

الشيخ يونس فى العقد السادس من عمره ولكنه يبدو شـــاباً ذا حيوية وقوة تفوق شباباً كثيرين فى ربيع العمر. يعيش حياة روتينية

بسيطة يسعد بها، يستيقظ فى الصباح قبل الفجر ويقرأ القرآن لمدة ساعة على الأقل، وكذلك بعد الصلاة. ومن بعد يتناول الفطور مع زوجته وأولاده. يحب الطعام ويتلذذ بجميع أنواعه. وأحيانا يقوم بعمل بعض التمارين الرياضية، ويوم الجمعة – إذا استطاع – يقوم بالعدو "بالترييننج سوت" حول المنزل. خريج كلية تجارة ويعمل فى تجارة الكابلات الكهربائية والألمنيوم ويحضر مزادات ويقدم على مناقصات، وماهر جداً فى عمله، ويستخدم المقهى بدلاً من المكتب فى معاملاته التجارية، أحياناً لا يرى بضاعته التى يشتريها ويبيعها.. يعطف على الفقراء ويساعد الشباب فى سن الربيع بالعمل معه. وحقيقة الأمر أن الشباب يتسابقون للعمل معه، نظرا لما يعطيه من أجر مرتفع، ودائماً ما يقول "من يعمل معى لا يحتاج لعقد عمل فى دول الخليج أو فى أوروبا، معى يكسب المال والخبرة والعلم معا " ودائماً ما تراه يسير ومعه موكب من الناس، خليط من الأصدقاء ومعارف وتجار وعمال.

من أعز أصدقائه صابر الفسّ، يجلس معه فى أوقات فراغه ولا يكف الاثنان عن المزاح وإلقاء النكت حتى ظن الناس أن صابر الفسّ والشيخ يونس هما اللذان يبتدعان النكات للشعب المصري. يجيد اللغة الإنجليزية وقليلاً من الفرنسية ومحترف فى عالم الكمبيوتر، ومكتبة ثقافية متحركة ومؤمن بالإصلاح الدينى ودائماً ما يقول: "ليس كل من هب ودب يصبح شيخاً، هذا ضرر بالإسلام " وحلل ذلك قائلا إن الشيخ الواعظ لابد أن يكون على دارية كبيرة بتجارب الحياة والعلوم وحتى الفن والأدب والشعر والسينما والمسرح، حتى إذا واجه سؤالاً لا يحرج ويبتدع أقوال الحرام والحلال فتحدث الكارثة:

ويقول إن الأزهر فقد دوره الحقيقى فى تعليم الدين وإصدار الفتاوى وأصبح خاضعاً للسلطة.

الشيخ يونس مولع بكرة القدم والتنس، وبعض شيوخ الأزهر حذروه عندما علموا بأنه يشاهد مباريات التنس النسائية فى المقاهي، فاكتفى بمشاهدة مباريات الرجال ودائما ما يقول لنفسه "لو أن النساء يرتدين شورت حتى الركبة أو سروالاً أثناء اللعب لاستمتعت بمشاهدة مبارياتهن". لا تفوته مباراة فى كرة قدم للفريق القومي، يذهب إلى الإستاد ومعه رق، ويغنى مع بعض الصحبة من أهل الحى المولعين بكرة القدم. ومن مواقفه الطريفة أنه كل أسبوع بعد أداء صلاة الجمعة ينتظره شاب من عماله بالفسّبا أمام الجامع فيركب خلفه ويذهبان إلى أرض الميت، القريبة من حى الحسينية وفى الطريق يتوقف ليغير ملابسه إلى "الترييننج سوت" ثم يقول للشاب:

– سوف نقهرهم.. ونهزمهم شر هزيمة بإذن الله.

– ادْعُ لنا يا مولانا.. واقرأ لنا سورة.

وعندما يصل إلى هناك فالويل للشباب لو كانوا قد بدءوا مباراة كرة القدم بدونه، وعند الانتهاء لو أصيبوا بالهزيمة يقول لشباب الفريق الآخر:

– الويل لكم بإذن الله، الأسبوع القادم سوف نقهركم.

وفى حالة الفوز، ترى الشيخ يونس كالطفل، يغنى ويصفق مع فريقه محاولا إغاظة الفريق المهزوم. وعندما يسأل الشيخ يونس عما يفعل يرد قائلا:

– أنا أحب الشباب فى الله والحياة معا.

الشيخ يونس يجيد فن الحديث مع مختلف العقول، مع الصغير تراه كالطفل الوديع، ومع الشباب هو شاب أكثر حيوية، مع المثقف هو الرجل الجاد الذى يعرف الكثير، ومع الشيوخ هو واحد من علماء الدين، ومع الظرفاء هو سامع النكتة وصانعها. محبوب من أهل الحى باستثناء قلة قليلة تعتبره لا يصلح أن يكون قدوة.

كانت نجفة تجلس فى شقتها لا تعلم شيئاً، عندما سمعت بعض الصراخ والشتائم ظنت أن فى الحى مشاجرة، وعندما اقترب الصوت من شقتها، سمعته يلعنها ويسبها بأقذر الشتائم، ارتعدت وتسمَّرت فى مكانها للحظات وهى تنصت جيداً من خلف الباب، وعندما شعرت بالخطر نحو شقتها أغلقت الباب بإحكام واستدعت أطفالها ليضعوا بعض قطع الأثاث خلف الباب، وعندما وصل المعلم عرنوس إلى باب شقتها أخذ يخبطه بكل قوة قائلا:

– أنت تُهدِّدينى يا بنت العاهرة.. عرنوس لا يُهَدَّد.. افتحى الباب يا عاهرة.

جسدها أخذ ينتفض بشدة وارتبكت بعصبية واضحة وقلبها أصبح محل قدميها وتمنت فى تلك اللحظة أن يقف بجوارها رجل، وتساءلت مع نفسها "ألا يوجد بين السبعين مليون نسمة رجل يدافع عنها؟" سألته فى استغاثة مستفسرة:

– ماذا حدث يا معلم؟ أنا لم أسئْ إليك.. واللحم تركته لك ولا أريد ثمنه.. أنا امرأة مسكينة وضعيفة وعندى أولاد.

– مَنْ إذاً الذى أرسل لى هذا الخطاب؟.. أمي!! أنت امرأة خبيثة، من الأفضل لك أن تفتحى الباب قبل أن أحرق المنزل كله.

عندما وصل الشيخ يونس إلى مدخل البناية طلب مـــن المعلـــم عرنوس بصوتٍ عالٍ وقوى أن يتوقف فى الحال وينـــزل إليه، نظر عرنوس من بينَ السلالم وقال للشيخ:

– يا مولانا..

رد الشيخ مقاطعا:

– قلت لك انـــزل إلى هنا وبعد ذلك نتفاهم.

استمع المعلم له فى خشوع وهبط إليه، وفَرَّقَ الشيخ الناس من حوله بشخطة واحدة، قائلا لهم إنهم قوم لا فائدة منهم سوى أنهم أكثر من الذباب والقمل.

أخذه الشيخ إلى محله وجلسا على بابـــه، وروى عرنـــوس مـــا حدث ثم أعطى له الرسالة فتصفحها، وبعد قراءتها تعجَّب وقـــال معترضا:

– نجفة لا تكتب مثل هذه الخطابات، هى امرأة مسكينة.. يبدو أن أحد أصدقائك يمزح معك.. هدِّئ من روعك وصَلِّ على النبي.

– عليه أفضل الصلوات والسلام..

– أولا: سوف يعيب عليك أهل الحى أنك اعتديت على امـــرأة مسكينة، ومن الأفضل أن تُهدِّئ من نفسك حتى أســـتعلم الأمـــر منها.

تركه ورحلِ قاصداً منـــزل نجفة، والآخـــر يـــدخن نرجيلتـــه ومزاجه، لاعناً النساء، إذ لا يأتى من ورائهنَّ سوى تعكير صفوه.

كان أخينا فى شقته يطهو وجبة سمك، وعندما لمح الشيخ يونس فى شقتها من خلال النافذة، أخذ يقلب الأسماك على النار بـــبطء شديد، وهو ينظر إليهما يتهامسان، مدركاً بالضبط ما تقوله نجفـــة للشيخ "أن لا صلة لها بالظرف الأحمر". أبصر الأسماك على النـــار

فأدرك أنها مازالت تحتاج إلى أن تُشْوَى أكثر وأكثر حتى يتلذذ بأكلها.

بعد غروب الشمس علم المعلم عرنوس باختفاء ابنه، جُنَّ جنونه، فثار من مكانه ثورة الثور الهائج، وأخذ يبحث عنه فى كل مكان ومعه عماله وبعض أبناء الحي. طلب المعلم عرنوس من نسائه الثلاثة أن يذهبن إلى منزل نجفة ويشدّوها من شعرها، ويجرجروها ويمسحوا بها أرض الحي، وإن لم يفعلن ذلك فسيقوم بتطليقهن جميعا هذه الليلة، ولابد وأن يعُدْن باعتراف منها عن مكان الطفل، وذهب هو إلى النقطة القريبة لمقابلة الضابط مصطفى سليم.

(٦)

مصطفى سليم ضابط شرطة يعمل بالنقطة التابعة لقسم الجمالية والقريبة من ميدان الجيش، فى أواخر العقد الثانى من عمره، وسيم بلا أدنى شك، علامات الطيبة مرسومة على ملامحه ويبدو كأنه واحد من هؤلاء الشباب الذين دخلوا هذه المهنة عن طريق الخطأ، مشهور فى الحى بأنه جنتلمان وخصم عنيد للشيخ يونس فى لعبة الشطرنج، مثقف ويهوى قراءة الشعر والقصص الرومانسية، أحيانا يبدو عليه الجنون والغموض وفى صوته بحَّة عجيبة تخرج من حنجرته ببطء شديد وكأن شيئا ما محشور بداخلها، وعندما تسمعه وتشاهد ملامح وتعبير وجهه تتذكر على الفور "مارلون براندو" فى فيلم الأب الروحي.

كان يجلس على مكتبه أمام المروحة ويقرأ رواية رومانسية، وعندما حضر المعلم عرنوس ليبلغ عن اختطاف ابنه أصيب

بالقرف الشديد، كان بوده الانتهاء من هذه الرواية الجميلة. أخذ يتصفح الرسالة ذات الظرف الأحمر باستغراب شـديد، ثم أعـاد قراءها مرة أخرى ليتأكد مما قرأ.. ثم تساءل مع نفسه "أنا لم أرسل لك هذا الخطاب!!"

وعندما لاحظ علامات الاستفهام والعجب علـى وجـه المعلـم ورجاله أفاق لنفسه وسأله:

– أتبيع اللحمة بسعر التسعيرة؟

– نعم

– أتغش فى الميزان؟

– لا

– أتعطى الناس مما تأكل منه؟

– بالطبع يا سعادة البيه.

– أنت رجل كذاب.. لو فعلت كل ذلـك لمـا وصـلك هـذا الخطاب.

– يا سعادة البيه لقد حضرت هنا من أجل طفلي.. ابنى خُطـف وعلى الحكومة أن تجـده.. أنـا أدفـع ضـرائب وعلـيكم أن تساعدوني.. نجفة خطفت طفلي.

– لا تتهم أحدا دون أدلة.

– هذه الرسالة أكبر دليل.

– يا رجل.. المفروض أن تبيع اللحم لكل الناس بالتسـعيرة ولا تغش فى الميزان وتعطى الناس مما تأكل منه. ارحل مـن هنـا الآن وسوف نقوم بعمل التحريات اللازمة.

رحل المعلم ومن معه. جلس الضابط على كرسـيه باسـترخاء شديد ثم سأله العسكرى الموجود معه بالغرفة:

– من الجائز أن يكون شنيدَر يا سعادة الباشا.
– شنيدَر صديقه الحميم.
– إذَن هو بالفعل.. أجارك الله من الأصدقاء يا سعادة الباشـــا.. سوف نقوم بزيارته الليلة؟

سأله أن ينصرف ويغلق الباب خلفه ويتركه وشأنه لمـــدة ســـاعة على الأقل، فلبّى أمره. وضع قدميه فوق المكتب وأمسك بروايته وقال لنفسه "الآن فقط أستطيع الانتهاء مـــن هـــذه الروايـــة فى هدوء".

نساء المعلم عرنوس رتبن الخطة ومعهن ثلاثة نساء أخريات من دواعى الجاملة، وسألوا صـــبيان المعلـــم أن يكونـــوا موجـــودين بسكاكينهم أثناء المعركة ولا يتدخلوا إلا إذ تدخل أحد من أهـــل الحى وحاول تعطيل مسيرتهن.

كان أخينا يراقب شقتها من خلف النافذة مدركاً أن الخطر قادم لا ريب فيه، ولابد أن يكون على أهبة الاستعداد، جهز مسدســـه الكاتم للصوت. يعرف أن المعلم عرنوس عنيد وتفكيره محـــدود، ولكنه البداية الحقيقية لاستعادة نجفة لكرامتها، لقد قرر ألا يتركها تقع فريسة فى يد هذا الوحش لكى ينغص عليها عيشتها ويعكـــر صفو حياتها.

انطلقت النساء بسرعة نحو منـــزل نجفة كالثيران عندما تدخل حلبة المصارعة، وعندما وصلن إلى مدخل البناية التـــزمن الهـــدوء وتسحَّبْنَ كالقطط التى تبحث عن فأر، وعندما وصلن إلى بـــاب شقتها طرقن الباب بهدوء شديد حتى تفتح لهن. فتحت نجفة الباب نصف فتحة فدفعن الباب دفعـــة قويـــة أوقعتـــها علـــى الأرض، فانْقَضَضْن عليها بسرعة ومن شعرها الجميل سَـــحَبْنَها وبالعصـــا

ضَرَبْنَها، فانـــزعج أطفالها وصرخوا بكل حرقة، وعلى الســـلالم أخذنَ يجرجرنها وهى تصرخ بشدة فى استغاثة، التَفَّ الجيران حولها وحاولوا إيقاف المأساة ولكن باءت المحاولة بالفشل، خشوا علـــى أنفسهم من عواقب الأمور واكتفوا بالمشاهدة، لقد بدا لهم الأمـــر فى غاية الجدية وأن جريمة سوف ترتكب فى حق نجفة الليلة.

على باب البناية أخذن يجرجرنها من شعرها على الأرض حـــتى منتصف الشارع وهى تصرخ فى حرقة واستغاثة وأطفالها يبكـــون ويصرخون بكل قوة. وبكل أنواع الضرب ضـــربنها، والملابـــس مزَّقْنها ورجال المعلم عرنوس يحمون النساء فى حصـــار دائـــرى مُحْكَم ليمنعوا أى شخص يتساءل أو يتدخل لفَضّ المعركة الـــتى كانت من جانب واحد، ورغم ذلك تعالت الأصوات متسائلة:

– ماذا حدث؟

– حرام عليكم.

– يا جماعة اتقوا الله.. كل هؤلاء على المسكينة.. هذا ظلم.

أخذت تصرخ بكل شدة فى استغاثة ولكن الآذان كانت صمَّاء أو ادَّعت الطرش، وعندما سمعت أذنه صوت الصراخ ذهـــب إلى الشرفة بسرعة وأبصر تحته، فرأى ما رأى، فطاف بعقله طائف من الجنون "كيف تتعرض محبوبته إلى كل هـــذه الإهانـــة ولا أحـــد يتحرك؟! يتعرض جسدها كسلعة للبيع وجمالها يزول بأيد قـــذرة غاشمة"، فى تلك اللحظة قرر أن يخوض المعركة حتى لو كلَّفه ذلك حياته، لقد وضعها فى هذا المأزق ولابد له أن ينقذها.

طار على السلالم قاصداً طريق الموت، ضرب ضربة خفيفة على جيب الجاكيت ليتأكد من وجود مسدسه، عند وصوله إلى بـــاب العمارة كان يلهث من شدة العَدْو، بدا كارهاً عابســـاً وصـــوَّب

نحوهم نظرة ثقيلة مخيفة لم يلحظها أحد، الأنظـار كلـها كانـت مصوبة نحو نجفة، حدد هدفه بسرعة فى رأسـه، سـوف يخـرج مسدسه أولا ويشير لهم بالابتعاد، وإن لم يستجيبوا لمطلبه، فالويل لمن يعترض طريقه، وقبل أن يخرج مسدسه وينفذ الخطة المرسـومة فى خياله بثوانٍ معدودة، وصلت عربة الشـرطة وخـرج منـها مصطفى سليمٌ ومعه بعض العساكر فتفادى أخينا التدخلِ، ولكنـه قرر أن تكون ضربته القادمة قوية ورسالته أكثر وضوحاً.

فقدت نجفة الوعى وتشوَّه وجهها وجسدها من أثر الضـربات، حاول الجناة الهرب، لكنهم لم يتمكنوا، فرجال مصـطفى سـليم كانوا أسرع فى القبض عليهم، أبصر مصطفى نجفة فى شـفقة ثم نظر للجماهير الحاشدة بغضب شديد وكأنهم يشاهدون مباراة كرة قدم، بدوا له كالذباب وإن كان الذباب أكثر منهم نفعاً فى تلـك اللحظة وقال فى صوت عال وغضب شديد:

– يا ناس كيف سمحت لكمً أنفسكم أن يحدث كل ذلـك أمـام أعينكم بينما أنتم تقفون موقف المتفرج.. لهذا الحد وصلت بكـم اللامبالاة!.. إن ما حدث لجارتكم نجفة قد يحـدث لأى واحـد منكم. كيف لم توقفوا هذه المهزلة لهذه المسكينة وأطفالها.

تم وضع نساء المعلم وصبيانه بسيارة الشرطة ونقلت نجفـة إلى المستشفى القريب.

فى تلك الليلة لم يغفل للمعلم عرنوس جفن، يرقد على سـريره ويفكر فى الأمر، لقد تم حجز نسائه بالقسم، كان لا يبـالى بهـن بقدر ما كان يبالى بطفله الذى أصبح لا يطيق فكرة عدم رجوعه، وعندما غفلت عينه لبضع دقائق، حدث ما حدث، وجد نفسه فى الظلام مكتوف الأيدى ومغمض العينين، ثم سمع تحطيم قطع أثاث

المنــزل، لم يترك الجانى قطعة بالمنـــزل إلا وحطمهــا إلى قطــع صغيرة. وبجوار أذنه سمع طلقات نارية فتبول فى ثيابه، وتركه الجانى وذهب لحال سبيله. بعد أن ترك له ظرفاً أحمر بداخله رسالة تقول: يا غبى لقد طلبت منك طلباً بسيطاً للغاية لن يكلفك شيئا.. وهــا أنت بسبب عنادك وجهلك تســببت فى كــل هــذه الخســائر والكوارث.. أمامك وقت قصير لتصليح ما تم تدميره.. وتعطــى نجفة كل أسبوع اثنين كيلو من اللحم مجانا وتعوض لها خسائرها. لقد حذرتك من قبل ألا تُخبر أحداً بهذا الظرف.. ها أنــت قــد كشفت المستور فعليك أن تنفذ ما يطلب منك لتفادى العواقــب الوخيمة.

فى الصباح لم يذهب المعلم عرنوس للاطمئنــان علــى نســائه بالقسم بل ذهب إلى المستشفى ومعه الكباب والفراخ وجميع أنواع الفواكه، وأمامها بكى كالطفل الصغير ثم طلب منها المغفرة وتكفل بكل ما تطلبه.

كانت مرهقة للغاية ولم تستطع الحركة، لم تفهم بالضبط ما يدور حولها، كان ذلك يفوق تفكيرها المحدود فخشيت على نفسها من الجنون. حاولت أن تنبس بكلمة ولكنها لم تســتطع، فأغمضــت عينيها وتمنت فى تلك اللحظة أن ترحل عن هذه الدنيا.

فى ظهيرة هذا اليوم عاد الطفل لأبيه المعلم عرنوس ولم يصــدق الرجل نفسه، ولكن الحى بأكمله لم يهدأ وأخذ يلوك سيرة نجفــة وما حدث لها، وكالعادة جلس الرجال على المقهى وناقشوا الأمر مع بعضهم، قال أحدهم:

– وراء نجفة قوة كبرى لا أحد يستطيع أن يقهرها.

فرد الآخر قائلا:

– إن زوجها عميل بعصابة المافيا.
ولكنهم أدركوا أنه أجبن من ذلك بكثير. فقد فر الرجل بسرعة عندما علم بمشاكل نجفة وكأنه لم يكن موجوداً فى الأصل. ولكنها مازالت على ذمته، ولو كان يبالى لوقف بجوارهـا خصوصـاً أن مطالب الظرف الأحمر مطالب بسيطة للغاية ومـن المفـروض أن يوفرها لها دون تردد، وباستطاعته أن يوفر لها هذه الحياة الكريمة. ولكنه يأتى عندما تشتد أزمته الجنسية ويحتاج إليها فقط، وها هو قد ادّعى حجة من الحجج ليكون بعيداً عنها وهى فى أشد الحاجة إليه.
بدأ الشك يتسرب إلى قلوبهم نحو الضـابط مصـطفى سـليم خصوصا بعد زيارته لها فى المستشفي، لم يشهد الحى من قبـل أن ضابطاً كلف خاطره وساعد مواطناً عاديّاً، فكيف يزورها ويشترى لها الورود؟ فهذا يدعو للتساؤل.. قال صابر الفِسّ:
– لا تسيئوا الظن بالرجل، فهو ضابط مهـذب.. وتـذكروا أن مطالب الظرف الأحمر هى من صميم عملـه ولديـه السـلطة فى تنفيذها قانونيا دون تهديد. إنه رجل مخلص وأنقذ نجفة فى الوقـت المناسب.
خرج آخر قائلا:
– إن نجفة نفسها هى التى تفعل كل ذلك لتوفر لنفسـها الحيـاة الرخيصة.
فرد آخر قائلا:
– ولكن نجفة كانت فى المستشفى مريضة ليلة تحطيم منـزل المعلم عرنوس.
– نجفة تخاوى جن.

فقال مؤيد:
– نعم.. نجفة ملموسة من الشياطين وعليك أن تذهب يا شيخ يونس وتتلو القرآن بمنزلها.
– يا أهل الحى.. إن العيب فينا من فوقنا لتحتنا. إن مطالب الظرف الأحمر هى مطالب عادية جدا لابد وأن تتوفر لكل مواطن وليس نجفة وحدها، نحن جميعا نعاني، ونجفة وحدها هى التى دفعت الثمن.

انظروا إلى أنفسكم تجلسون على المقهى طوال اليوم والزبالة والمجارى طافحة أمام أعينكم ولا تقومون بالنظافة، تقضون الساعات الطويلة فى لعب الطاولة وتدخين النرجيلة بينما أنتم تعانون الفقر، وتحقدون على من يعمل ويجاهد بكل جد ويصبح معه أموال، أفيقوا لأنفسكم واعملوا بكل جد مثل الشعوب الأخرى التى تكرهونها. هذا البلد لن يصلح حاله إلا بالعمل الجاد.

أصر الناس على أن يذهب الشيخ يونس ويتلو القرآن فى منزلها لتنصرف عنها الأرواح الشريرة، ولم يجد الشيخ مفرًا من جهلهم سوى الاستجابة، وحتى لا يتهم بأنه شيخ ولا يريد أن يتلو القرآن، احتشد الناس حول البناية، وأثناء قراءة الشيخ للقرآن، خرج صوت عالٍ من أحد المعتوهين، مدمن على مخدر البانجو وحبوب الصراصير ومشهور بالهلوسة.. قائلاً:
– الله أكبر البيت اهتز يا رجال.. الله أكبر.

صَدَّقه البعض، ولم يصدقه الآخرون رغم أن الجميع كانوا موجودين ويشاهدون ما يجرى.

مر أسبوع قضته نجفة فى فراش المرض، كابدت فيه من جـــروح آلام الجسد والنفس ما يعجز عن احتماله الأبطال. وعندما عادت من المستشفى إلى منـــزلها كان الحال قد تغير بل انقلبـــت الحيـــاة رأساً على عقب، الجميع أصبح يخشى نجفة، خشوا من أن يصـــل لهم ظرف أحمر، فأخذ الجميع يتودد لها. كشْك يرسل لهـــا الخبـــز الطازج، والمعلم عرنوس اللحم الجيد، وبائع الخضروات يرســـل كل ما هو طازج بأرخص الأثمان، وكذلك بائع الفاكهـــة، حـــتى المدرسون أصحاب أهل العلم خشوا واختشوا وأعطوا الـــدروس الخصوصية مجاناً لأولادها.

كانت ترقد على سريرها، وأمامها يجلس الضـــابط والشـــيخ يونس، أخذت تستغرب كل هذه الأمور، حتى أصـــبحت تشـــك بالفعل أن المنـــزل مسكون بالعفاريت وأنها لا تـــدرى بـــذلك. دخلت طفلتها الصغيرة وهى تحمل أكواب الشاى وقدمتها لهمـــا، ثم رحلت إلى المطبخ مرة أخرى.. فقال مصطفى سليم:

– لا تؤمنى بهذه الخرافات، لقد أنعم الله عليك بعد طول صـــبر.. ولابد أن تحيَىْ حياة جديدة وتستغلى هذه الظـــروف الجيـــدة فى صَفّك.

وأضاف الشيخ يونس:

– أفيقى لنفسك.. وانطلقي.. الحياة الآن أصبحت ســـهلة ومـــا عليك سوى أن تهتمى بنفسك وبأطفالك وتعملى إذا أتيحت لـــك الفرصَة.. أنت تستحقين أكثر من ذلك يا ست نجفة.

انتابها إحساس بأن الضابط وراء كل هذه الأحداث وتساءلت مع نفسها: إذا كان هو بالفعل وراء كل ذلك، فلماذا لا يفصح لها

عن حبه ويساعدها فى التخلص من زوجها ويتزوجها ويوفر لهـا ولأولادها الأمان لما تبقى من العمر.. ردت باستسلام:
- لقد أُهنْتُ إهانة كبيرة فى الحى كله.. ومـن ذلـك اليـوم لا أستطيع أَن أخرج إلى الشارع وأرفع عينى ورأسى كمـا كنـت أفعل.. وفَرَّ زوجى الجبان وتركنى للعذاب وحدي.. وها هم الآن يعتقدون أن البيت مسكون وأننى أخاوى جِنّاً.
رد الشيخ يونس قائلا:
- هذه خرافات يا ست نجفة.. المنـزل غير مسكون.. وإذا كان مسكوناً فهو مسكون بالشياطين الآدمية وهؤلاء لا خوف منـهم لأنهم جبناء، ويحبون الحياة ومتشبثون بها، ومن السهل السـيطرة عليهم.
- ولكنى خائفة يا مولانا.
- إذا كنت تخشين الجن والشياطين، فمن السهل السيطرة عليهم بقراءة القرآن.. اقرئى بنفسك سورة الفلق وسورة النـاس قبـل النوم وعندما تشعرين بالخطر. أما الشياطين الآدمية فعلينا أن نفكر فى أمرهم بجدية وبطريقة أخرى.
قال الضابط وكأنه هبطت عليه فكرة من السماء:
- إذا كان الناس يعتقدون بجهلهم أنك تخاوين جِنّاً يـدافع عـن حقوقك، فلماذا لا ندعهم يظنون ذلك وتستفيدى مـن جهلـهم لتحيى حياة طيبة؟ وإذا حاول أحدٌ إيذاءكِ مـن اليـوم فَهدِّديـه بالجن.. وتعالى نختار معاً اسماً للجن.
ضحك الضابط ضحكة بريئة وساخرة، ونهض الشيخ يونس مـن مكانه وقال موافقا:
- فكرة رائعة يا مصطفي.. وليكن اسم الجن "بوش".

- "شارون".. دعنا نطلق عليه "شارون".
- ما الفرق إذا بين "شارون" و"بوش"؟
- "شارون" سفاح قديم ومتمكن فى علم الشياطين
- وبوش أقوى رجل فى العالم.. ونحن نريد أن يكون عفريتنا قوياً.
قالت نجفة وكأنها وجدت فكرتها:
- "شانبوش.. شانبوش"
ضحك الجميع فى وقت واحد ونظر كل منهم للآخر وقال الشيخ:
- مزج بين الاثنين.. وهكذا يكون عفريتنا صناعة محلية مـــاداموا يريدون ذلك.
قالت فى إصرار شديد لنفسها:
- من يعترض طريقى من اليوم فسوف أقول له ســـوف أســـلط عليك شانبوش.. والويل لكم من "شانبوش".

(٨)

- يا جمال النبي.. عينى لم ترَ هذا الجمال من قبل وقلـــبى لم تخفـــق دقاته بشدة منذ زمن طويل.. سوف أضع صورتك على الحائط يا جميل.

هكذا غازل صابر الفسّ نجفة بابتسامته المعهودة وبصوت عـــالٍ وهى تسير من أمامه بخفةَ ودلع واثقة فى نفسها وجمالها، ابتســـمتْ برقة شديدة وغمزت له بعين واحدة وكأنها تعطى درساً لملكـــات الجمال فى الإغراء، وقالت فى تحذير ودلع فى نفس الوقت:
- هسلط عليك شانبوش يا فسّ.
رفع يديه إلى أعلى وكأن شخَصاً صوَّبَ مسدسه نحوه، وقال وهو يبتسم ابتسامته المعهودة:

– قل أعوذ برب الفلق.. يجعل كلامنا خفيف عليهم.

حقيقة الأمر أن الفسّ لم يجامل نجفة فى جمالها.. لقد كانت بالفعل تبدو فلتة من الجمالَ فى ثوبها الجديد وتسريحة شعرها التى أضاءت وجهها نوراً وحُسناً. تعجبت لأمر أهل الحى وفكـــرت فى تلـــك اللحظة: لو سارت عارية تماماً كما دفعتها أمها يوم ولادتها فلـــن يجرؤ أحد أن ينظر إليها، ولكنها لم تَرْضَ لنفسها بعمـــل ذلـــك. وهكذا استطاع شانبوش هذا الكائن الخرافى أو العفريت العاشـــق أن يحل جميع أزماتها ويسترد لها كرامتها ووفر عليها أشياء كـــثيرة كانت تعانى منها وترهقها وتبدد طاقتها، وها هى الآن تحيـــا مـــن جديد، بلا خوف أو تعب، لقد توفر لها ما أرادت. وأخذت تحيـــا من جديد حياة لم تحلم بها من قبل.

حصلت على فرصة عمل فى محل لبيع الملابس بمرتب مُجْزٍ، ولا أحد يجرؤ أن يتحرش بها. أخينا رقم "٣" كان يجلس مـــع صـــابر الفسّ وشعر بارتياح شديد، وأدرك أن الحياة سهلة وما علينا سوى أنَ نسعى لتحقيق الهدف دون المبالاة بالنتائج السلبية، أو الاهتمام بنسبة البطولة لأنفسنا مادام هناك الإيمان القوى بالهدف.

عندما عاد الزوج بعد غيبة وبعد أن تأكد أن كل شيء على ما يرام، تظاهر بأنه كان فى رحلة عملٍ وفَضِّ نـــزاع حـــدث بـــين عائلتين فى سيناء والصلح بينهما.

دخل الزوج إلى غرفة النوم فَخُيِّلَ إليه أن الغرفة كلـــها عيـــون ترقبه، أخذ ينظر ويتلفت فى الحجرة كلها فربما توجد كاميرا ترصد حركاته، أو يظهر شخص فجأة ويطعنه من الخلف. ألقى بجســـده على السرير وكأنه يلقى بجسد شخص آخر، ثم أمسك بمروحة من الريش وأخذ يهوى بها على نفسه، أصابه القلق الشـــديد، لقـــد

جرت العادة أن ينتظرها خمس أو عشر دقائق فقط تقضيها فى الحمام، وها هى الآن غابت أكثر من ساعة، كان بداخله غير مقتنع بكل هذه الخرافات.. هو الوحيد الذى يعرفها جيدا، يعرفها أكثر من نفسها، شك أن هناك رجلاً آخر يحفر له قبره، يدرك أنه لا يجد لذة فى العيش إلا بجوارها، ولا طعم للحياة إلا معها، ويفضل الموت عن أن تذهب نجفة لشخص آخر وهى أمام عينيه، هو لا يطيق فكرة البعد عنها أو العيش بدونها.

دخلت إلى الحجرة ووجدته يرقد على السرير فألقت عليه نظرة من نار فنظر إليها نظرة المتوسل المستعطف، اتجهت نحو المرآة وأخذت تمشط شعرها وتراقبه من خلال المرآة ثم قالت فى حدة:

– لابد أن تطلقنى فى أقرب وقت.

كان يخشى تلك اللحظة، لحظة المواجهة، كان يعلم أنها سوف تقوم بهذا الطلب آجلاً أو عاجلاً، ولكنه لم يتوقع هذه السرعة، أدرك أنها تمكنت من حريتها وأنها أصبحت لا تبالى الآن وتستطيع العيش بدونه، وهذا ما كان يخشاه، قال لنفسه: "لو تمكنت نجفة واستطاعت أن تعيش بدونى فعلى الدنيا السلام". تساءل فى برود شديد:

– ماذا حدث يا حبيبتي؟ ماذا فعلت؟

أزاحته بعيدا:

– أنت لم تفعل شيئا.. ولذلك أريد أن أنفصل عنك.

– أنا أحبك يا نجفة.. وأنت تعرفين أن الحياة صعبة.

– الحياة ليست صعبة.. أنت الأنانى ولا تحب سوى نفسك.. ولا تعمل إلا لمصلحتك ومصلحة عائلتك غير مُبالٍ بنا.. تعيشون فى رخاء وتقول لنا: إن الحياة صعبة.. وتأتى لى عندما تحتاج لجسدي.

– أنا أفعل كل ذلك من أجلك.
– تعطيني فضلات ما تبقى من طعامكم وتقول إنك تعمـــل مـــن أجلي؟ ثم قالت مستطردة بلغة التحذير وهى تغادر الحجرة: سوف أتركك تنام الليلة هنا، وأرقد أنا مع الأطفال، وغـــدا ترحـــل ولا تعود.
– اسمعى يا نجفة إذا كنت تخاوين جناً.. فأنا أعرف شيخاً كـــبيراً يستطيع مساعدتك، نذهب له فى الغد أو الآن إذا رغبت.
قالت فى سخرية:
– أنا أحب هذا العفريت.. والحقيقة هما اثنـــان ولـــيس عفريتـــاً واحداً. يعنى من الأفضل لك أن تطلقني.
– لا يا نجفة.. أنا أعرفك جيدا لن أتركك بكل هذه السهولة.. أنا لا أومن بهذه الخرافات ولا أخشى الشياطين والأبالسة ولن أتركك إلا جثة هامدة.. أنت زوجتى وسوف تظلين زوجـــتي.. وســـوف تخلفين بحياتى بعد مماتى يا نجفة.. وإذا كان يغويك شيطان فليظهر لى الآن وأنا مستعد للقائه.
– لقد مللت منك ولا يوجد لدى ما أخسره.. لقد خسرت معك الكثير والموت الآن أهون من أن أبقى معك.

(٩)

كان المعلم عرنوس هو أكثر المتضررين من هذه الحالة، حيث إنه خسر هيبته فى الحى وأصبح الكثير يتعالى عليه، وأخيرا عرف لقبه بالحى "المعلم جاموس" وسمع البعض يسخر منـــه ولم يســـتطع أن ينبس بكلمة، فشعر بضعف شديد لم يشعر به من قبل، بجانب أنـــه يخسر كل أسبوعين ثمن اللحمة التى تطفحها (كما يقـــول لنفســـه

دائما) هى وأولادها، ومازال لم يقتنع بعد بحكاية شانبوش فامتلك قلبه الغيظ الشديد.

فى ليلة من الليالى كان يجلس وحده أمام الدكان ويدخن مزاجه وزاد عليها بالخمر المغشوش التى لطشت رأسه وأعطته إحساساً بالقوة، وعندما لمح نجفة عائدة من العمل فى وقت متأخر وتسير واثقة الخطوة، وترتدى فستاناً ضيقاً يبرز جمالها بصورة لم يرها من قبل. ثارت فى نفسه جميع الغرائز التى لم تنتبه من قبل، هو الذى لا يحب مضاجعة النساء إلا لإنجاب الأطفال، فجأة، وجد نفسه ولأول مرة يرغب امرأة بكل حواسه، بجانب الحقد المدفون بداخله ضدها، وجد نفسه كالصائم لسنوات طويلة وأمامه الآن مائدة من أشهى المأكولات، لطشت الخمر رأسه ولعب الشيطان بعقله المحدود، وتبلورت فى رأسه فكرة الانتقام، ود أن يضربها على ما فعلت ليشفى غله الزائد، وأن يملك جسدها الجميل على ما فاته من متعة طوال سنوات، بسرعة رسم لنفسه خطة شيطانية وقرر تنفيذها فى الحال.

أنزل الباب الحديدىّ دون أن يغلقه بالقفل، وانطلق فى الظلام بخفة نحو بنايتها، ساعده الحظ ولم يكن فى الشارع أحد، صعد السلالم وهو يعرف بالضبط ما سيفعل فى هذا الوقت المتأخر من الليل، طرق باب شقتها برفق شديد، ظنت أن زوجها عاد فى هذه الساعة المتأخرة ليمارس حقه الطبيعي، فقررت أن تتخلص منه ففتحت الباب وهى غاضبة، وإذا به يدفع الباب بكل قوة وينقض عليها كالصقر على فريسته، ويكمم فمها ليمنعها من الصراخ، ثم يغلق الباب برفسة من قدمه اليسرى. حاولت التخلص منه ولكنه

كان الأقوى فانهال عليها بضربة قوية على رأسها أفقَدتْها الوعي، وحملها إلى غرفة نومها.

فى تلك اللحظة كان أخينا رقم "٣" يأخذ حماماً ساخناً، وعقله مشغول بالغد والاختبار الأخير والمهمة التى سيكلف بها، المهمة التى لا يعرف عنها شيئا، هو فقط سيقوم بها من أجل أن يحيا معها حياة سعيدة. كان يود أن يعرب لنجفة عن حبه الشديد قبل الذهاب إلى مهمته، والخطة التى رتبها فى خياله بعد الحصول على المكافأة والعيش معها فى سعادة، تحت الماء الساخن شعر بانتعاش جميل، وفجأة تذكر أنه لم يطل عليها، فانقبض قلبه، كيف ينسى أن يطل على محبوبة قلبه؟ خطا بسرعة خارج الحمام وأخذ ينشف جسده بالفوطة ثم لفها حول وسطه وذهب نحو النافذة. فى غرفة النوم لم يساعده الظلام على رؤية ما كان يجب أن يراه، يبحث عنها كالدكتور الذى يبحث عن علاج للوباء. انتابه إحساس بأن شيئا مفزعاً سيحدث، ساورته بعض المخاوف والقلق ولكن سرعان ما تبدّدت عندما أدرك أنه مقبل على الاختبار. أحس بلفحة برد خفيفة فأخذ يرتدى ملابسه، أدرك أن الإنسان عندما يقبل على اختبار تلازمه الوساوس والقلق.

أخيرا ظهر شبح فوق السرير يبدو وكأنه يمارس الجنس فوقها، تألم ألماً شديداً وأدرك أن زوجها يضاجعها. أراح جسده على الكرسى الهزاز المريح بجوار النافذة وسرح فى عالمه الخاص، قرر أن يُركّز فكره المشتت فى اختبار الغد والمهمة التى مازال لا يعرف عنها شيئاً وقد تكون فيها نهايته.

كان المعلم عرنوس لا يصدق نفسه وهو يرقد فوقها ويغرس قضيبه بداخلها وهى فاقدة الوعي، فى حياته لم يتلذذ بهذا الجمال،

وعندما أفاقت شعرت بالثقل فوقها ولم يساعدها الظلام للتحقق من الراكب فوقها، فى البداية ظنت أنه العفريت "شانبوش" واختلط الوهم بالحقيقة، هل أصبحت هى الأخرى تصدق أكذوبتها؟ هى التى ابتدعت هذه الكذبة لتحيا من جديد، عندما تأكدت أن الحقيقة ما هى إلا كابوس مزعج اسمه عرنوس يرقد فوقها ويكتم أنفاسها، صرخت بكل ما تملك من قوة، فكمم فمها مرة أخرى، وظل يمارس معها وهو مكمم فمها وهى تتملص تحته محاولة التخلص منه.

عندما سمع أخينا الصرخة الخارجة من غرفة نومها، انتفض من كرسيه ونظر من النافذة فلم ير شيئاً فخرج بسرعة إلى الشرفة ليتأكد ولكنه أيضاً لم يستطع أن يرى شيئاً، ود فى هذه الساعة المتأخرة أن يذهب إلى منزلها ويطمئن عليها ويتأكد أنها بخير ويعرب لها عن حبه الشديد وما فعله، وأنه مقبل على مغامرة كبيرة لا يعرف مصيره وقد تكون نهايته فيها من أجلها ومن أجل سعادتها.

عندما انتهى المعلم عرنوس من فعلته، فر من الغرفة بسرعة ونهضت نجفة وأشعلت الضوء فاتضح كل شيء لأخينا فرآها تبكى وتتألم ممزقة الملابس. لحظات معدودة وأبصر تحته المعلم عرنوس يهرع من البناية وهو يعدل من ملابسه، فأدرك على الفور ما حدث، جن جنونه، ولم يصدق ما رأت عيناه وكأنه يحلم. كيف حدث لها ذلك؟ كانت تبكى بحرقة، ارتدى حذاءه بسرعة وهبط السلالم طائراً.

كان الشارع يخلو من المارة، ولمح أخينا المعلم عرنوس على باب دكانه وهو يرفع الباب الحديدى بيد واحدة، فانطلق بسرعة نحوه

وقد رتب فى رأسه ما سوف يفعله بالضبط، وعندما لحق به طار فى الهواء ورفسه بقدمه من الخلف بكل ما يملك من قـــوة، فـــانطرح الآخر على الأرض آخذاً معه النرجيلة ومنضدة صـــغيرة وبعـــض الأكواب. وبسرعة شديدة قفز أخينا إلى أعلى وأمســـك بنهايـــة الباب الحديدى وأنـــزل به ودخل إلى المحـــل. وأغلـــق البـــاب الحديدى عليهما وتعالت أصوات التكسير والتخبيط بالـــداخل، حتى هدأ كل شيء، وتستطيع بعدها أن تسمع دبّة النملة.

(١٠)

فى الصباح ذهب أخينا لشقة نجفة وطرق بابها، فتح لـــه أحـــد أطفالها، دخل إلى الشقة وكأنه واحد من أهلها، وكانت ترقـــد فى فراشها، دخل إليها فأصابها رعب جديد، فتساءلت فى نفسها: متى تتخلص من هذا الرعب الذى بدا أبديًا لها؟ سحبها بســـرعة مـــن يديها وهى تستفسر الأمر، ولكنه لم يُعط لها فرصة، كـــان يحمـــل حقيبة الكتف، فبدت مستسلمة وهى تَهـــذِى بشـــدة وفقـــدت السيطرة على نفسها وتركت شأنها للآخرين، وكأن ما يدور حولها من أحداث لا يمت لها بصلة، وارتضت بـــالأمر الواقـــع، ولـــو وضعوها فى القبر وأغلقوا عليها فى تلك اللحظة لكانـــت هـــذه النهاية السعيدة لحياتها البائسة، كان يسحبها من يديها ويهبطـــان السلالم، وعندما وصلا أمام محل المعلم عرنوس، سألها بالإشارة أن تبقى بمكانها حتى يفتح المحل بابه، ثم أعطاها مفتاح شقته، وطلـــب منها أن تنتظر رجوعه، وأكد عليها أنه ســـوف يعـــود.. ثم حمـــل حقيبته على كتفه ورحل.

كانت فى حالة عدم وعي، وتشعر بأنها كالطفلة التائهة فى مدينة كبيرة ولا تعرف بالضبط ماذا تفعل.

عندما فتح العمال الباب الحديدى تمثلوا فى أماكنهم من هـــول المفاجأة، كان مشهداً من المشاهد التى تراها فى أفـــلام الرعـــب الأمريكي، المعلم عرنوس معلق من قدميه، عارٍ تماماً كما دفعته أمه يوم ولدته، ودمه سائح على الأرض، ومُعَلق بَدلاً من اللحم الذى كان يعلقه كل يوم، أفاقت من هلوستها على صـــدمة جديـــدة.. صدمة أعادت إليها عقلها، وجعلت قدميها صـــلبة علـــى الأرض كأساس البناية المتين، وشعرت كأن الحياة عادت لها من جديـــد.. عادت تطلب منها أن تتشبث بها. صرخت بكل ما ملكـــت مـــن قوة.. صرخة دوى صداها فى الحى كله، كانت لا تعلم بالضـــبط لماذا أطلقت هذه الصرخة القوية. لقد خرجت دون وعى، هل من بشاعة ما رأت، أم من فرحة الثأر، أم صـــرخة تشـــبث بالحيـــاة وإشهار وجودها؟ ولكنها كانت متأكدة من أن هـــذه الصـــرخة أشعرتها بالشفاء من كل داء، وأفاقت لنفسها على صوت الهـــرج والمرج الذى حدث بالحى إثـــر الحادثـــة وعلامـــات التعجـــب والاستفهام التى بدت واضحة على الوجوه، ســـارت فى طريقهـــا واثقة الخطوة، والحى بأكمله مشغول بمشاهدة المعلم معلقاً بدلاً من جاموسة. لم ترتسم على ملامحها أى علامة للشفقة علـــى حالـــه كالآخرين، وكأن موته بمثابة إعلان عن حياتها.

عندما وصلت إلى مدخل عمارتها، كانت ترى الناس يهرعـــون بسرعة نحو المحل لينالوا نظرة الفضول. وقفت حائرة ومفتاح شقته فى يديها، فانتهزت الفرصة ودخلت عمارته وصعدت السلالم ببطء شديد، وفتحت باب شقته ودخلت إلى عالمـــه. للتـــوّ لم تصـــدق

نفسها: هل دخلت إلى عالمه أم عالمها؟! صورها فى كل مكان على الحائط بالصالة، أغلقت الباب خلفها وهى تبصر نفسها على الحائط.. صورها وهى تبكي، صورها وهى تضحك، صورها بقميص النوم، تنقلت بين الغرف لتجد صورها فى كل مكان.. صورها وهى تشخط فى أحد أطفالها، صورها وهى تتشاجر مع زوجها وهو يحاول أن يضمها بكل قوة نحوه. لم تجد سوى نفسها التى لم ترها من قبل. خرجت إلى الصالة مرة أخرى، وعلى المكتب القريب منها ظروف حمراء، من النافذة رأت شقتها مكشوفة تماماً فأدركت سر النافذة العاكسة، وهنا أدركت كل شىء.

أراحت جسدها على الكرسى الهزاز المريح بجوار النافذة فى مواجهة الباب، جلست باسترخاء شديد وحاولت بشدة أن تتذكر لقاء أو نظرة بينهما، وجدت الذاكرة فارغة ككراسة بيضاء، مثل حياتها السابقة، تشبثت بالكرسي، شعرت بعدم القدرة على الحركة، وكأنها أصيبت بالشلل، وإن استطاعت أن تنهض فى تلك اللحظة فلن تنهض قبل أن يعود إليها، ودت من صميم قلبها أن يعود بسرعة لكى تعانقه بشدة وتريح رأسها على صدره ليمحو عذاب السنين الطويلة الفائتة. لقد ضحّى الشاب بكل ما يملك من حياة من أجلها وأعاد لها كرامتها، ألا يستحق الآن أن تعانقه وتؤمن به مادام قد ضحّى كل هذه التضحيات من أجلها.

أدركت أنها ليست بلهاء أو مخبولة، ولن ترحل من هذا المكان قبل أن يعود.

شنيدَر

نحنَ شعب نعشق العيش فى الظلام.

(١)

عندما تسلّم أخينا رقم (٢) الرسالة من ساعى البريد أدرك على الفور من الظرف الأحمر أنها الرسالة المنتظرة، ارتبك فى بدء الأمر وفتحها بسرعة ثم أخذ يقرأ سطورها فى لهفة شديدة:

الاختبار الأخير

الرجاء الحضور يوم واحد أكتوبر فى الثانية ظهرا.

ملحوظة: أنت رقم "٢" الرجاء حرق الرسالة بعد الاطلاع عليها.

لاحظت الأم المريضة الراقدة على الكنبة بالصالة الارتباك والسعادة فى نفس الوقت على وجه ابنها الوحيد فسألت للاستفسار والاطمئنان:

– خير.. ماذا يحمل هذا الظرف الأحمر؟

– خيراً يا أماه.. لا تقلقي.. إن شاء الله خير.

كان أخينا يدرك مدى أهمية اجتياز هذا الاختبار، فالنجاح يعنى تحقيق الأحلام التى طال انتظارها، والفشل يعنى بقاء الحال على ما هو عليه وربما يكون للأسوأ. كان يعلم أن الفرصة لا تأتى كل يوم على طبق من ذهب، وها هى الآن، ولابد أن يتشبث بها. ابتسم ابتسامة خفيفة مدركاً أن مشاكل فقره وقحطه ومرض أمه كلها قد حلت. كان يثق فى نفسه وقدرته وبراعته فى استخدام السلاح، واجتياز الاختبار الأخير لا ريب فيه. يعلم جيدا أنه فى حالة نجاحه سوف ينال نصف المكافأة مليون دولار والنصف الآخر بعد تمام المهمة التى سوف يكلف بها ولا يدرى حتى الآن ما نوع هذه المهمة، هل هى من أجل الخير أم الشر؟ من سوف يكون ضحية

طلقاته السريعة؟ لمن سيستخدم سلاحه ولماذا؟ وهل سينجو من الموت؟

هو لا يبالى وإنما فقط يريد أن يحيا حياة أفضل وأن يوفر لأمه الراحة والحياة الكريمة التى تستحقها، لقد تعبت من أجله سنوات طويلة وجاء الوقت ليرد لها الدين، ويفوز وحده بشربات فاتنة الحى التى تخبل عقله. ذهب إلى حجرته وأخرج مسدسه من موضعه السرى وخبأه فى جيب الجاكيت، ثم حمل حقيبة الكتف ورحل من المنزل قاصدا المقابر وبداخله إصرار شديد على النجاح.

أخينا رقم (٢) فى منتصف العقد الرابع من عمره، يعيش مع أمه المريضة فى شقة بسيطة من حجرتين فى منتصف حى الحسينية قريبة من جامع البيومى والوكالة. وسيم، شعر رأسه المنكوش الطويل ينزل على عينيه الجميلتين، وعلى خده الأيمن جرح بسيط من أثر حادث عفى عليه الزمن، لا أحد فى الحى كان يعرف أباه، لقد حضرت أمه إلى الحى مع أبيها وهى حبلى به فى الشهر السابع، واستأجرا شقة من حجرتين ودكاناً فتحه الجد محل بقالة. وعندما أخذ بعض أهل الحى من الفضوليين فى السؤال عن الأب، قيل لهم إنه تاجر من الشام حضر للقاهرة ثم تزوج من خضرة وذهب إلى رحلة عمل تجارية إلى لبنان وسوف يعود وهم ينتظرون عودته. وبالطبع بعض أهل الحى من أصحاب سوء النية شكوا فى الأمر، ولولا عفة وطهارة أم أخينا لهلكت سيرتها من الألسن، ولكن كرم أخلاقها وحسن استقبالها وشدة قوتها وجمالها، كل ذلك جعل الحى يكن لها كل الاحترام ولقبت خضرة بالست الطاهرة.

فى إجازة المدرسة كان الجد يصطحب حفيده معه إلى الـــدكان، وأحيانا يتركه وحده فى الدكان ويذهب لقضاء بعض الاحتياجات، خصوصا أن خضرة من نوع النساء اللاتى لا تغادرن المنـــزل على الإطلاق، واشتهر الطفل بلباقته فى الحديث وأدبه. لقد أدخل الجد الإيمان القوى إلى قلبه وزرعت الأم روح الخير فى نخاعـــه. مولـــد "سيدى البيومي" هو العيد الرسمى للطفل الذى يسمح لـــه فيـــه بالسهر والتجوال فى الحى مع الأطفال، فتعلم بعـــض الأعمـــال السحرية وأخذ يعرضها على الأطفال وأهل الحي، وكـــان يجيـــد اللعب على الأرجوحة والتشقلب عليها بطريقـــة لافتـــة للنظـــر والعجب، وأمام عربة "البمب" كـــان لا يوجـــد أمهـــر منـــه فى التصويب والفوز بالحلويات والعرائس مما جعل بعض أهل الحـــى يقومون بدفع ثمن استعمال البندقية لكى يستمتعوا ببراعته وحرفته فى استخدامها، كان يصيب هدفه بحرفية شديدة، وهـــى معجـــزة لطفل فى سنه لم يتعلم من قبل هذه الحرفة فأطلقوا عليـــه "صـــانع المعجزات".

وعندما بلغ سن الشباب، حق عليه المثل القائل "سبع صـــنايع والحظ ضايع" وبعد وفاة الجد بدأ يقلل من الوعظ الدينى واندمج فى الحياة ومتطلباتها، بل بدأ يحلم بالعيش فى أوروبا ظناً منه أن تلك البلاد تحمل نفس أفكاره وميوله ورغبته فى المعرفة، وكـــان يحلـــم بتعلم اللغات والكمبيوتر ولا يمانع فى العيش فى حى أرقي، وتمـــنى أن يجد الأموال التى توفر علاج الأم وممرضة لها إذا أمكن، والعيش مع شربات حلمه الأول والأخير.

انتهى من التمرن على سلاحه فى المقابر و اطمأن على حالـــه ثم ذهب إلى مقهى فانوس.

(٢)

جرت العادة عندما يدخل زبون إلى مقهى فانوس أن يقوم صبى المقهى "استئناف" باستقباله والترحيب به، وإذا كان يعرف طلبه، تجده على الفور وبصوت عال قد أذاع الخبر ليس للعامل الـذى يقف على النصبة بالداخل فقط بل للشارع كله، وبصوت مزعج يجعل بعض الزبائن تنفر منه، ويقوم البعض منهم بضربه على قفـاه حتى يُقلع عن هذه العادة السيئة، ولكنه – على ما يبدو – فضَّـل الضرب على القفا. وعندما هلّ أخينا رقم (٢) قـال اسـتئناف بصوت عال:

– مرحباً بصانع المعجزات.. قهوة مضبوطة لصـاحب "السـبع صنايع والحظ ضايع".

أخذ أخينا ركناً منفرداً يطل على الشارع ويستطيع من خلاله أن يرى الذاهب والآيب، لقد فات يومان دون أن يرى محبوبتـه شربات ويأمل أن يراها اليوم لتكتمل فرحته، ود من صميم قلبـه أن يعرب لها عن حبه وأن يقول لها: "الآن نستطيع أن نحيا حيـاة أفضل من هذه الحياة التى تقرف الصراصير". وضـع اسـتئناف القهوة أمامه على المنضدة ولم يشعر به، لقد كان شـارداً فى عـالم شربات والمكافأة. قال لنفسه: "آجلاً أو عاجلاً سوف تمر لشـراء حاجاها أو فقط من أجل المرور"، شربات لا تقل جمالاً عن نجفة بل يزيد على جمالها أنها بنت العشرين، صاحبة الخدود الحمراء كالورد عندما يتفتح، وجسد رشيق متناسق للغاية، لها شَعْرٌ أشقر سـايب وعينان مكحلتان وثديان مكوران غالباً ما تبرزهما للطالع وتظهرهما عمداً، وشفتاها غليظتان، تحت السفلى منهما حسنة جعلتها أكثر جاذبية وإغراء، وما يميزها ويجعلها واحدة من فاتنات الحى طريقة

عرض هذا الجمال والمشية العجيبة التى تهز بها مؤخرتها وثـــدييها، ونظراتها الزائغة التى تجعل من يتحدث إليها يظن أنه الوحيد فى هذا العالم الذى ترغبه ولكن سعيد الحظ هو شنيدَر.

الغريب فى أمر شربات أنها لم تدخل المَدرسة ولكنـــها ترتـــدى ملابس على أحدث خطوط الموضة، وتسريحة شعرها تبدو وكأنهـــا عائدة للتوّ من باريس، ذوق رفيع جدا لفتاة تطلعت على أحـــدث المجلات فى خطوط الموضة، فتاة رقيقة كأولاد الــذوات، ولكـــن عندما تفتح فمها وتتحدث لا يختلف اثنان على أنها تربية شوارع، الصوت المتحشرج وسلاطة اللسان، والردح الذى لا يفوقها فيـــه أى امرأة أخرى بالحي، ولذلك يتفاداها جميع النساء والرجال على السواء. كيف جمعت بين الرقى والحضيض؟ هل هى الصـــدفة أم شيءٌ آخر؟ لا أحد يعرف. بجانب ذلك هى راقصة بارعة ولا تمانع فى مجاملة أهل الحى الذين يُكنُّون لها كرهاً غير عـــادى لبجاحتـــها وقدرتها على عمل أشياء دون أن يعترض عليها أحد.

شربات معروفة بأنها صديقة شنيدَر مجرم الحى ولذلك لا أحـــد يستطيع أن يتعرض لها، أحيانا تقوم ببيع مخدر "البانجو" عندما يـــتم القبض على رجال شنيدَر. والمعروف عنها أيضا أنها تخبئ الحبوب المخدرة بأماكن حساسة بجسدها. لا يوجد رجل بالحى لم يحلم مع نفسه "بالحلم الشرباتى" (يعنى ليلة ساخنة مع شربات) فجمالهـــا يحوى سراً غامضاً يجعل من يراها يتخيلها عارية تماما فى غرفة نومه وهى تمد يديها له لطلب العون.

أخينا رقم "٢" كان يختلف عن أولئك الذين يتمنون ويحلمـــون "بالحلم الشرباتى" لقد فاق كل ذلك ورسم فى خياله خطة، هـــى نفسها لا تعلم بها "أن يكون هو الفائز الوحيد بها" لقد كان يعلـــم

أن شربات حبها الأول والأخير النقود، ولو فتح قلبها لوجد بداخله دولارات ولا ترضى لها بديلاً ومستعدة لأن تعمل أى شىء من أجل المال، وها هو الآن يشعر أن المكافأة كفيلة بحل هذه المشكلة ، ولكن ما يقلقه أمه، التى لا يطيق أن يحزنها ويخشى عليها من لفح الهواء الطاير، لو أدركَتْ أنه يرغب فى الزواج من شربات لتوفِّيَتْ على الفور.

كان استئناف مشهوراً فى الحى كله بغباء لا يُحسد عليه، فاستخدمه بعض رواد المقهى فى رفع صوته ببعض العبارات عندما تمر إحدى الحسناوات، فمثلا عندما تسير امرأة حسناء يقول "الحساب يا معلم" وعندما تسير امرأة قبيحة يقول "خليك مع الله" وعندما تحضر شربات فلها مصطلح خاص "نار يا حبيبى نار". وعندما يحضر البزليس ليكبس على المقهى يقول فى صوت عالٍ: "الأمر لصاحب الأمر" فيفر الجميع من المقهى بسرعة.

استئناف فى العشرين من عمره، المعروف عنه الطيبة الشديدة المخلوطة بالسذاجة، يبدو كأنه يبحث لنفسه عن معنى لوجوده بالحياة حتى إنه أحيانا يقول بدواعى المزاح: "نحن ليس لنا لزوم فى هذه الحياة" ويفسر ذلك قائلا: "نصف الشعب المصرى ليس له لزوم فى هذه الحياة ولو كان الأمر بيدى لسخرتهم لبناء أهرام جديدة ماداموا لن يفقهوا معنى لوجودهم". بصرف النظر عن صحة كلامه من عدمه فهو طيب القلب، يعشق الاستماع للقصص والحواديت. عندما يحكى بعض الزبائن أمامه حكاية، يترك عمله ويقف مستمعاً فى بلاهة متناهية، ويعشق أيضا مشاهدة التليفزيون وخاصة الأفلام والمسلسلات، وكثيرا ما حذَّره المعلم أنه سوف يطرده إذا ظل يترك العمل ويشاهد المسلسل مع

الزبائن. والسبب الذى من أجله أطلق عليه أهل الحى هذا الاسم الغريب هو أنه تم القبض عليه بمحض الخطأ مع مجموعة من المجرمين وتحول إلى النيابة ومنها إلى المحكمة، وفى المحكمة ثبتت براءته، فذهب لمحامى المقهى بعد براءته وطلب منه أن يعمل له "استئناف".

أطلق استئناف صرخة قوية من حنجرته قائلا : "نار يا حبيبى نار"، فأدرك الجميع أن شربات فى طريقها للمرور من أمام المقهى فركزوا أبصارهم على الشارع. فكر أخينا رقم (٢) أن يذهب ويتحدث معها عن حلمه وحبه الشديد لها، وأنه لا يستطيع أن يعيش بدونها وأنه يفعل كل ذلك وسوف يخاطر بحياته من أجلها، وأنها تستحق المغامرة.

أخذ يراقبها فى حذر شديد من تحت نظارته الشمسية السوداء وهى تسير أمامه فى طريقها إلى السنترال (كُشْك صغير للتليفون) مقابل للمقهى. كانت تبدو مسرعة وفى لهفة وقلق شديدين على غير العادة. أخذت تتحدث فى التليفون بصوت خافت، ورغم ذلك استطاع أن يسمعها تقول

– آلو.. أيوه يا بوب.. أنا شربات

قرر أن يذهب ويتحدث معها بعد الانتهاء من مكالمتها، لقد نفد صبره ولابد من مصارحتها بحبه قبل أن تذهب حياته هباء وهى لا تدري. لحظات معدودة وظهر "شنيدَر" وخلفه رجاله على بعد عدة أمتار، والجميع يفر من أمامه والمحلات تغلق أبوابها فى سرعة، ورجاله يضربون من يرونه بالشارع، لا أحد يعلم مع من سوف تكون المشاجرة. طلب استئناف من زبائنه أن يرحلوا بسرعة، وقبل أن ينتهى من جملته، فر الجميع ليتخذوا موقعاً بسطوح أو نافذة عالية ليتابعوا سير المعركة.

أخينا رقم (٢) شعر لأول مرة بعدم الرغبة فى التحـــرك مـــن مكانه، وكان على أتم الاستعداد أن يقف فى وجــه هــذا المجــرم الشرس، وأن يخطف منه شربات إذا حكم الأمر. هو يظن أنها لا ترغبه وتبقى معه خوفاً وارتعاداً وليس حباً، ولذلك قرر أن يخوض المعركة وماذا سوف يخسر؟ محبوبته أمامه، شعر بقوة غـير عاديــة عندما لمس جيب الجاكيت وتأكد من وجود المســدس، وعنــدما اقترب شنيدَر من المكان قال استئناف فى صوت عال:

- اهربَ يا أستاذ.. اهرب يا أستاذ الدم هيبقى للرُكب.. ومــن الأفضل أن ترحل من هنا.

وعندما وصل رجال شنيدَر للمقهى كان أخينا هــو الوحيــد الموجود وأمامه شربات عَلَى الرصيف المقابل، واســتئناف يلــم الكراسي، وقبل أن يذهب رجل من رجال شنيدَر لتأديبــه، رفــع شنيدَر يده اليسرى وطلب منه أن يتركه لــهَ، فضــرب الرجــل استَئناف بدلاً منه، وتبادل شنيدَر وأخينا النظرات الحادة فلمــس أخينا مرة أخرى جيب الجاكَيت لمسة خفيفة ليتأكد مــن وجــود مسدسه، وهو على أتم الاستعداد للمواجهة.

(٣)

روى عن شنيدَر الأقاويل فى عالم الإجرام، ولكــن مــا جعلــه أسطورة سوفَ تتحدث عنه أجيال متعاقبة فى حى الحسينية أسباب عديدة أولها: أنه كان طفلاً أقل من عادى والأفضل: أتفه طفل فى الحي، الكل يضربه على قفاه والبعض يرسله لقضاء حاجتهم وإن لم يَقُمْ بقضائها على أكمل وجه يضرب بالحذاء القديم.

وثانيا: أنه أصبح فتوة فى زمن انتهى فيه عصر الفتونـة، والفتـوة الحقيقى أصبح الحكومة التى لا يغلبها الآن غالب.
ثالثا: كان يختلف كل الاختلاف عن باقى الفتوات حيث إنه يملك من الجرأة والإقدام على الخصم ما لم يملكه أحد من قبل، ويكفـى أنك تستمتع عندما تراه يتعارك، يقف كالوتد ولا يتحرك، فقـط سيفه ومسدسه هما اللذان يتحركان بخفة غير عادية ويرتدى حلـة على بطنه يربطها بإحكام شديد ولا أحد يعرف سرها.

ولد شنيدَر فى منـزل قديم من دور واحد يشـبه المغـارة، فى درب عزوَز. عند مدخل المنـزل ممر حلـزونى. المجـارى دائمـا طافحة على أرضه، وفى نهايته حجرتان متقابلتان، حجرة لأسـرة شنيدَر وأخرى لأبو فرج. أسرة شنيدَر مكونـة مـن الأب والأم وبنتين ثم شنيدَر أصغرهم، استطاعَت الأسرة أن تجعل من الحجرة حجرتين، بوَضع ستارة تستخدم كفاصل بين سـرير الأب والأم والمرتبة التى ينام عليها الأبناء، وحقيقة الأمر أن الستارة لا تخفـى شيئا، ناهيك عن أن الأم عنـدما يلمسـها الأب يعلـو صـوتها بالتأوهات الجنسية لتغيظ جارتها أم فرج غير مبالية بالأطفال.

وأختا شنيدَر فاجرتان بطريقة لا تخفى على الجميع، تجلسان على باب المنـزَل وتُصوّبان النظرات الزائغة لشباب الحى، وإذا مر من أمامهما أحد ولم يُلقِ عليهما السلام أو التحية أو نظرة، فالويل له، سوف يتهم بمعاكستهما، وغالباً ما تنهضان من مكانهما وتخلعـان الأحذية وهات يا ضرب حتى يظهر له منجد. وبعـض الشـباب عندما تشتد أزماتهم الجنسية، ما على الشـاب سـوى أن يغمـز لواحدة منهن ويذهب نحو الخرابة القريبة من المقابر فتأتى خلفـه، وهناك يبدأ فى ملامسة جسدها دون أن يلمس عضوها.

حدث ذات يوم أن شاباً من أهل الحى كان يعمل ترزيّاً فى محل صغير، ذهبت إليه الأخت الكبرى بقصد أن تفصل جلباباً، ومـــن سوء حظه أن معلمه كان غير موجود بالمحل، فأصابه ما يصــيب الكائن الحى فى طلب اللذة وحق عليه القول "ما اجتمــع رجــل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما" وحقيقة الأمر – حتى لا نظلــم الشيطان فى هذه الحدوتة – كانت هى الشيطان نفســه، ســألها الشاب أن تصعد للغرفة العليا ليأخذ المقاسات لها فأدركت (بحكم الخبرة) غرضه غير النبيل. فصعدت السلم الخشبى الصناعى ببطء شديد، وهى تنظر إليه بعين زائغة لتشجعه، وأخذت تحذق جلبابها حول مؤخرتها وهزتها، وهو خلفها ينظر إليهـــا بشـــهوة ولهفـــة شديدين ويتصبب عرقاً.

وعندما صعدا طلب منها أن تخلع جلبابها حتى يستطيع أن يأخذ المقاس بالضبط، ففهمت مقصده فوضعت وجهها للحائط وهـــى تدعى الخجل، وخلعت جلبابها ببطء شديد ولم تلتفت، ولكنها فى نفس الوقت دبرت فى خيالها خطة للاستفادة من حماقته التى بدت شبه واضحة وطبيعية، أصبحت بقميص نومها فبـــدأ فى ملامســـة جسدها من الخلف، فتركته، فشد كرسيّاً قريباً منها وجلس عليــه وأخذ يتأمل جسدها من الخلف، وعندما التفّتْ لترى ما يفعـــل، شدها نحوه فجلست فوقه وهى تدعى أنها غير راضية عما يفعـــل، وهو يقبض عليها ويلامس ثدييها وما إن شعرت بانتصاب وقـــوة قضيبه بمؤخرتها حتى أخذت تتحرك يمنة ويسرة فهـــاج صـــاحبنا أكثر، وسألها إذا كان يستطيع أن يمارس من الخلف، فرقدت على بطنها ثم رفعت قميص نومها، فخلع سرواله بسرعة وقفز فوقهـــا وخلع لها الكلوت، وعندما أدركت أنه فى قمة هياجه وشـــهوته،

لفت جسدها بحركة عجيبة وإذا به يغرس قضـــيبه بداخلـــها دون وعي، وعلى إثرها فقدت عذريتها، فنهضت فى حركـــة تمثيليـــة وصرخت بأعلى صوتها معلنة أنه قام باغتصابها، وبالطبع فى ثـــوان معدودة كان الحى بأكمله أمام المحل مصـــاباً بالفضـــول، فهـــرع صاحبنا بسرعة وإذا بالحى كله يهرع خلفه محاولا اللحـــاق بـــه، وعند الإمساك به، لم تمر الليلة حتى كان متزوجاً منـــها فى قســـم الجمالية تحت تهديد السلاح من أسرتها وأسرة أبو فرج.

كانت هى فى أشد سعادتها لأنها كانت تعلم أن هذه هى الطريقة الوحيدة للزواج، وكان هو فى أشد تعاسته ولم يدرك أن القدر كان على خصام معه فى هذا اليوم وخبأ له هذه الكارثة.

فشلت كل محاولات الأخت الصـــغرى فى اصـــطياد فريســـة للزواج بها على طريقة الأخت الكبرى، حتى الذهاب إلى الخرابـــة والمقابر مع الشباب أصبح ميئوساً منه، لأنهم خشوا جميعـــا مـــن ملاقاة نفس المصير، بل إنهم أيضا فضلوا أن يسيروا مسافة طويلـــة على أن يمروا من أمام منـــزلها خوفا من المصير المحتوم، وكانـــت الأم لا تخجل أن تقول للحي.

– نحن نخاف الله.. ولكننا لا نختشي.

كان يسكن فى الغرفة المقابلة لهم أبو فرج، غرفـــة لهـــا نفـــس الظروف والمواصفات. متزوج من دلال، امرأة سمينة جدا بيضـــاء وتتحرك بصعوبة شديدة، وذات وجه مليح، ولها لسان مـــن نـــار وعصبية المزاج، هى وأم شنيدَر "دويتو" فى المشاجرات والـــردح، وما إن تجد إحداهنّ تتشاجرَ حتى تسرع الأخرى دون أن تعـــرف الأسباب وتقوم بالواجب بل تشعلها وتجعلها ناراً على علم كمـــا يقال. ابنهما الوحيد فرج، مدلل من الأم والأب لأنه الحيلة، وفرج

يكبر شنيدَر بأشهر قليلة وبحكم الجيرة أصبحوا كالإخوة، والمعروفَ عن أبو فرج أنه رجل مهذار وخفيف الظل، ولا أحد يعلم إذا كان هو نفسه يدرى بذلك أم لا، لأنه نادراً ما يضحك، وترتسم على ملامحه الجدية، أحيانا يتحدث باللغة العربية الفصحى ويستخدم مصطلحات من أفلام مصرية قديمة، ويحفظ خمس كلمات بالفرنساوى وكلمتين باللغة الإنجليزية وبالطبع أصبح لأهل الحارة خبير لغات. والحى كله يعرف أنه فتوة قديم ولكن لم يشاهده أحد من الكبار أو الصغار فى مشاجرة، ودائماً ما يرتدى جلباب العربجية.

أبو فرج لديه صورة بالأبيض والأسود وهو يرتدى بذلة أنيقة وبرنيطة ويدخن سيجاراً مع مجموعة من الأجانب فى بار ويبدو مثلهم كالخواجة، ودائماً ما يفتخر بالصورة ويقول لمشاهديها وهو يتنهد:

– أيام!! هذه أيام الشقاوة عندما كنت أعمل مع المافيا الإيطالي.. والفلوس كانت تنصب علينا براميل براميل.. أيام الشقاوة.. ها.. أيام.

كان البوليس يبحث عنى وأنا أختفى منهم كأدهم الشرقاوى.. وكنت لهم بألف وجه.

بالطبع ما قاله أبو فرج كان محل تصديق وذلك لأن الصورة كانت خير دليل ولا تكذب، صدقه أهل الحى وأكنُّوا له احتراماً شديداً وأصبح مجرماً بمرتبة الشرف الدولية،لم ينسَ أبو فرج أن يقول لهم إنه مطلوب من الإنتربول الإيطالى ولكن لم تستمر هذه الكذبة طويلا، حتى كشفها سيد الكردى.

سيد الكردى كان يعمل فى سينما سهير بشارع الجيش، وذات يوم شاهد فيلماً عربيا ظهر فيه أبو فرج كومبارس صامت بنفس الملابس وأشخاص الصورة فى البار ولم يستغرق وجوده على الشاشة أكثر من ثوان معدودة. وراح سيد وأذاع الخبر لأهل الحارة، فذهبوا لمشاهدة الفيلم، وانكشف المستور ولكن أبو فرج ظل لأيام طويلة يصر على كذبته، فبدا كالمغفل الذى يستخدم طاقية الإخفاء بطريقة معكوسة، هو يعتقد أن الناس لا تراه ولكنه ظاهر لهم جميعاً.

وعندما أدرك أن أهل الحى أصبحوا لا يصدقون كذبته، ذهب لسيد الكردى وعكر صفو حياته، وفيما بعد سلط عليه زوجته وأم شنيدَر فعكرا حياة الأسرة الصغيرة، ولم يمر أسبوعان حتى رحل الرجل من الحارة مع وزوجته وابنه خوفاً من المنغصات. وأخذ أبو فرج الصورة وظل يذهب بها إلى أحياء أخرى مجاورة ويكذب كذبته والجميع صدقه لأن الصورة كانت خير دليل.

أبو فرج مدمن تعاطى حشيش وأحيانا يشرب البراندى المصري، لديه سيف حاد يعلقه على السرير وعصا غليظة من زمن العهد القديم، ودائماً ما يقول:

– يا دنيا.. لو النساء أصبحن مثل الرجال فعليك السلام.

رغم أنه يحب النساء بجنون، وأيضا من مقولته الشهيرة:

– المتعة الحقيقة للرجال هى النساء.. لا الحشيش ولا الخمر ولا شيءٌ آخر يمتع الرجل الحقيقى سوى امرأة.

فى يومٍ من الأيام التى خلا فيها المنزل من الجميع عدا شنيدَر وأمه وأبو فرج، أرسله الأخير فى شراء علبة سجائر، وبالطبع أوصاه أن يشتريها من مكان بعيد وأعطى له فلوساً زائدة ليشترى

لنفسه حلوي. فرح شنيدَر بالمبلغ الزائد فقرر أن يشترى السجائر بسرعة من أقرب محل ويعود للمنزل لينتهى من مهمته، وبعد ذلك يذهب لاستئجار دراجة لمدة ساعة. وعندما عاد سمع أمه من غرفتها تتأوه من اللذة مع أبو فرج، تأثر تأثراً شديداً وأخذ علبة السجائر وذهب إلى الخلاء، وعلى طريقة الأفلام العربى كتم الغيظ فى نفسه، وبدأ يشد أول أنفاسه، ولم يعرب لأبيه عمّا رأى وسمع، ولم يمر أسبوعان حتى اكتشف أن أباه أيضاً يرقد مع أم فرج وأنه يتمتع معها أكثر مما يتمتع مع أمه، لأنه هو الذى كان يصرخ ويتأوه من اللذة، فشعر بارتياح شديد وكأن أباه أخذ بالثأر، فانصرف عنه الغيظ الشديد ولكنه أصبح مدمناً للسجائر فى سن صغيرة.

فرج وشنيدَر أصبحا صديقين حميمين بحكم المكان والجيرة. ولم يفلح الاثنانَ فى أى عمل بسبب ما أصابهما من دلع الأمهات لأنهما الحيلة. أبو فرج خشى على ابنه فأخذه معه للعمل على العربة الكارو. ولم يفلح أبو شنيدَر فى عمل المثل، فكان دائم الهرب منه، فأصبح شنيدَر ينتظَر طوال اليوم عودة صديقه ليلعب معه فى الليل.

شنيدَر أسود اللون أكثر منه قمحيّاً، قبيح المظهر ودائماً ما يرتدَى ملابس قذرة ويسير حافى القدمين بناء على رغبته، شعره أسود طويل وأكرد، ويعشش على وجهه الذباب، ودائماً ما يفتخر بقتلهم. أشرف زنجى هو الذى أطلق عليه شنيدَر، ولا أحد يعلم من أين أتى بهذا الاسم حتى حضر واحد من مثقَفى الحي، وفسر لهم أنه اسم لأحد فصائل القرود ولم يتحقق أحد من صحة المعلومة ولم يبالوا لأنهم بالفعل قد نسوا الاسم الأصلي.

أشرف زنجى كان طفلاً غير عادي، سادى الطبع، يكره كل ما هو جميل ويحطمه، ويضرب كل من هو ضعيف، ويتلذذ بعـــذاب الآخرين، وعصبى المزاج، وأسرته لم تستطع أن تتحكم فيه فطاش فى الحى بلا قيد. كان يلقبونه بالأسود، وعندما شاهد أهل الحـــى مسلسل الجذور الأمريكى أطلقوا عليه أشرف زنجي، لأنــه أسمـــر البشرة أكثر منه سواداً، وكثيراً ما تعرض أشرف للأذى بســـبب أعماله السادية وكان زبونه الخصوصى هو شنيدَر.

كانوا مجموعة من الأطفال تذهب إلى الخلاء القريب من المقـــابر للعب الكرة. شنيدَر كان مهووساً بلعب الكرة، ناهيك عن أنه لا يعرف ماذا يفعلَ بها عندما تأتى إليه سوى أنه يضـــحك ضـــحكة بريئة ويشوط فى أى مكان وهو حافى القدمين، مـــش مهـــم مـــع الخصم أو ضده فقط يشوط، غالبا ما كان يقف حارس مرمى لأى فريق، إذا كان أشرف زنجى موجوداً ويحرس مرمى فريقه، فالويل له لو أصيب مرماه بهدف، كل هدف بعلقة ساخنة حتى لو كـــان الذنب ليس ذنبه. وإذا كان يقف حارس مرمى لفريـــق الخصـــم فأيضا الويل له لو صد كرة لأشرف زنجى أو لأحد زملائه.

أخينا رقم (٢) كان يتألم لشنيدَر بل هو الوحيد الـــذى كـــان يدافع عنه. وهكذا أصبح شنيدَر ملطشة لكل من هب ودب مـــن الأطفال، طفل عابر سبيل يجده فى طريقه لا مانع من ضربه علـــى قفاه كتحية ومودة، امرأة تختار فى إرسال أطفالها لشـــراء كيلـــو ملوخية ترسل شنيدَر، رجل يحمل بطيخـــة ويتصـــبب عرقـــاً فى الصيف فيرسل شنيدَر بها إلى منـــزله. وصديقه الوحيـــد يعمـــل بالنهار مع أبيه علَى العربة الكارو وفى المســـاء يتقـــابلان بجـــوار الأبوين اللذين يدخنان الحشيش فى الممر. كانـــا فـــرج وشـــنيدَر

يجلسان بجوار أبويهما وهما يدخنان الحشيش على الجوزة، فعرفا السطل قبل أن يذوقا طعم المخدر.

ذات ليلة ترك الأبوان قطعة من الحشيش والجوزة وذهب كل منهما لمضاجعة زوجته، وإذا بشنيدَر وفرج يقومان بالواجب والانتهاء مما لم يستطع الآباء الانتهاء منه، فأصبح يوماً مشهوداً ونقطة تحوُّلٍ فى حياتهما.

(٤)

فى يوم من تلك الأيام التى لا تنسى فى تاريخ الحارة، ولا يمل الناس من سرد هذه الحكاية بعضهم لبعض فى أوقات فراغهم رغم أنهم شاهدوا الحكاية أو سمعوها ألف مرة:

كان هناك حوش من أحواش المقابر يستخدمه أحمد الجربن مقهى لتدخين وبيع الحشيش، وحقن الماكس فورت، وزبائنه معروفون من أهل الحى أو من أحياء أخرى، واشتهر الرجل بأخلاقه وأدبه مع أهل الحي، عندما علم أبو فرج أن هناك امرأة مدمنة فى العقد الخامس من عمرها تتردد على المكان وتدخن بشراهة أخذ يذهب إلى هناك، كان الجميع يعرف أنها لا تحب مضاجعة الرجال فتركوها وشأنها، تدخن معهم وترحل لحال سبيلها متى تشاء.

وفى هذا اليوم شرب أبو فرج كثيراً من البراندى الفاسد، ودخن بشراهة حتى كاد أن يقع على الأرض عدة مرات، لطشت الخمر رأسه فقرر أن يرقد مع المرأة ويقدم لها (حسب تفكيره) خدمة العمر.

فى البداية ضحك الجميع وظنوا أنه يمزح، ولكنه كان فى غاية الجد والإصرار، فشدها من يديها فبدأت فى الصراخ. حاول

الجربن لهدئة أبو فرج، ولكنه ثار ثورة عارمة كمن يطلب حقا من حقوقه المشروعة فى الحياة وسأله أن يبتعد عن طريقه ولا يتدخل:
– عيب يا عم حسن.. اتركها وشأنها.
– ارحل عنى يا جربن.
– يا عم حسن هى فى مكانى.. وأنت فى مقام والدى ولا يصح ما تفعل.

واشتد العنف فى الحناجر، وكان الجربن لا يريد أن يعتدى على رجل فى سن أبيه أو يستخدم العنف معه. فصعد أبو فـــرج فـــوق الحوش ومعه المرأة وخلع الجلباب ووقف لها باللباس وهى تصرخ بجواره، وبالطبع لم تمر ثوان معدودة والتَفَّ حشد لا حصر له مـــن الناس للمشاهدة. وأخذ أبو فرج يتحدث باللغة العربية قائلا:
– لقد أعلنتُ عليكَ الحرب يا أحمد يا جربن.. أرِنِ مـــاذا تفعـــل معي.
ثم ينظر للمرأة بجواره التى كانت تنتفض من الرعب ويقـــول لهـــا مستطرداً:
– يا امرأة أنا أقدم لك خدمة العمر.. سوف أجعلك مـــن اليـــوم وصاعداً تحبين الرجال.
– وأنا أعلم جيدا أننى سوف أجعلك تكره النساء.
– لا تخافى عليّ.
– أنا أخشى على نفسى.. اتركنى وشأنى.

الجميع كان يكتم الضحك بداخله، عدا الجربن الذى قال لـــه بنفاد صبر:
– يا عم حسن لقد صبرت عليك طويلاً.. أرجوك.. انـــزل وبَطِّلْ فضايح.

– لن أنـــزل من هنا يا جربن.. لقد أعلنت عليك الحرب.. وإذا كنتَ رجلاً اطلع لى هنا.
– يا عم حسن عيب أنت مثل أبي.. ولا يصح هذه الفضـــائح.. انـــزل.. واترك المرأة وشأنها.
– لا.. لا.. لقد أعلنت عليك الحرب وعليها الحب. ثم أضاف: لا يوجد فى الحى من أنفق أمواله على قضيبه مثلي.. لقد أنفقت بكل بذخ على النساء.

فى هذه الأيام كان شنيدَر وفرج قد بلغا سن الشباب، وتعاطى الحشيش أصبح لا يؤثر عليهما بنفس الدرجة التى كانـــا بهـــا فى الماضى. فعرفا طريق الحبوب المخدرة، وكانت البداية مع حبـــوب الباركولينا المعروفة الآن بحبوب الصراصير. عندما وصـــل الخـــبر لفرج أن أباه يتشاجر مع أحمد الجربن، كان يهلوس مع نفسه مـــن أثر هذه الحبوب ومعه شنيدَر الذى كان يرقد على الأرض متخيلاً أنه يزيح ثعباناً عن رقبته. سحب فرج السيف المعلق على الحـــائط وهرع بسرعة، فانتفض شنيدَر وسحب هو الآخر العصا الغليظـــة وهرع خلف صديق العمر ليقوم بمجاملـــة تُـــرَدُّ لـــه فى أقـــرب مشاجرة.

عندما وصل فرج إلى الساحة، بحث فى الوجوه عن أحمد الجربن، وعندما رآه من الخلف هرع نحوه، وبسرعة نـــزل بالسيف علـــى ظهره، وعندما التفتَ الجربن ليتأكد مما يحدث كان الآخر قد فتح بطنه بالسيف، وتنبل الجميع فى حالة ذهول وأكثرهم أبـــو فـــرج الذى كان غير مُصدِّق ما رأت عيناه، ثم يأتى شـــنيدَر ويضـــربه بالعصا على قدميه ويطرحه أرضاً، ويضربه فرج ضربة أخيرة على

وجهه، وشنيدَر يحمى ظهره ويضرب بالعصا كــل مــن يحــاول التدخل. أبوَ فرج قفز من أعلى الحوش وهو يصرخ فى ابنه قائلا:
- يا ابن العاهرة ماذا فعلت؟

وفَرَّ فرج وشنيدَر إلى المقابر، وذهب الأب نحو الجربن فى حركة تمثيلية وكأنه يقفَ على خشبه المسرح القــومي، ويقتــرب منــه ويلمسه بيده ليتأكد من وجود الروح، ثم يقول فى لغــة عربيــة فصحي:

- يا ابن الأخ.. لقد جنى عليك ولدي.. الذى هو مــن لحمــى ودمي.

وبينما أحمد الجربن غارق فى دمه ويطلب بعينه النجدة، والجميع يضحك على أبو فرج وما يقوله، يطبطب عليه ويتلوث بالدماء، ثم يقول مستطرداً:

لَوِّثْنى يا ابن أخى بدمائك.. أنا أستحق أكثر من ذلك.. لا تمت يا ابنَ الأخ.. لن أغفر لنفسى ذلك.

نــزلت المرأة وأصابها ما يصيب الكائن الحى عندما تشتد أزماته الجنسية عند رؤية شيء يثيره، وأبو فرج مســتمر فى مســرحيته الهزلية، والناس من كثرة الضحك نســوا أن يطلبــوا الإســعاف للجربن وهو يتألم ويموت. لم يجد الجربن سوى أن يلطم أبو فــرج بيده لطمة خفيفة من الغيظ ، ولكنها كانت كل ما يملك من قوة، ولو استطاع فى تلك اللحظة أن يقتله لقتله.. والآخر مســتمر فى مسرحيته قائلاً:

- اضربنى يا ابن الأخ.. اضربنى فأنا أستحق.

ومالت المرأة على أبو فرج وقربت ثديها من ذراعــه ولفــت ذراعها حول كتفه قائلة:

– وأنا سبب هذه المأساة.

فنظر إليها فى تعجب شديد وأدرك أنها على استعداد لتنفيذ ما كان يرغبه منذ دقائق معدودة.. فقال فى سخرية شديدة باللغة العامية:

– ما كان من الأول يا بنت الزانية.. يعنى لازم الرجل يقع قتيل.

ضحك الناس وتذكروا أن يطلبوا الإسعاف للجربن وتم نقله للمستشفى حيث قضى شهرين، ومن بعدها تم اعتقاله.. ومن خلف الأسوار توعد بالانتقام من فرج وشنيدَر.

(٥)

وَجَد الصديقان شنيدَر وفرج أنفسهما بمحض الصدفة محطّاً للأنظار، معهما سيفَ وعصا ومطاردان من رجال الحكومة، فسكنا المقابر. فى الأيام الأولى تحملا الجوع ولكن جسديهما لم يحتملا ألم المخدر الذى اعتادا عليه. كوَّن فرج عصابة من المقطوعين وبدءوا فى شن هجمات على تجار المخدرات القطاعى بكل غشم. كان شنيدَر وراء نجاح هذه الهجمات، لقد كان يملك من القوة ما لا يملَكه فرج، ولكن ذاع صيت الأخير أكثر منه لأنه العقل المدبر. شنيدَر تميز بالجرأة والشجاعة والإقدام على القتل بلا تردد أو خَوف، فأصبح الرجل الأول فى عصابة فرج الطويل. سخر الناس منهما وتساءلوا مع أنفسهم: هل عاد عصر الفتونة من جديد؟ وكيف للحكومة التى لا يغلبها غالب أن تسمح بذلك؟ بالطبع الحكومة لم تُبال لأنهما لم يقوما بسرقة أو إيذاء أحد من أهل الحى أو حتى المتاجرةَ فى المخدرات، ففضلتهما لأنهما كانا يسببان خطراً على تجار المخدرات، فتركتهما تحت المراقبة.

عندما تسرب الخبر إلى فرج أن شنيدَر هو الرجل الحقيقى وراء نجاح عصابته وأنه الأقوى ويستطيع أن يتعـارك وحـده ويحطـم الكثير، جن جنونه، وملأ الحقد قلبه، وتأثر تأثراً شـديداً فـابتلع شريطاً من الحبوب المخدرة، وشرب كثيراً من الخمر المغشـوش، فشعر بقوة غير عادية، فسحب سيفه ومسدسه وذهب إلى الشارع وحده مقرراً الانتقام من أهل الحي، وأيضا ليثبت لهم أنه الأقـوى ويستطيع أن يغلق شارعاً وحده ويبث الرعب فى قلب من تسوّل له نفسه الحديث عن قوته. فى طريقه أخذ يضرب كل من تقابـل معه، وحطم واجهات المحلات، وفر الرجال من على المقهى، وأخذ يطلق النار فى الهواء فأسكن الرعب فى قلوبهم، حـتى مشـاهدى الشبابيك والشرفات ارتعدوا وحُرِمُوا من متعة المشاهدة وقالوا إن فرج جُنَّ، وتساءلوا: ماذا يريد بالضبط؟ وما إن سمعت الحكومـة بخبر إطلاق النار لم تمر ساعة واحدة وكان فرج فى قسم الجماليـة مُعلقاً من قدميه، وبعدها تم ترحيله إلى المعتقل.

وفجأة ودون سابق إنذار وجد شنيدَر نفسه رئيسا لمجموعة مـن الرجال يتساءلون: ماذا نفعل يا معلّم؟ فى تلك اللحظة لم يعـرف بالضبط ماذا يفعل؟ لم يصدق نفسه أنه أصبح زعيماً. وحتى يتأكد أن ما يحدث له حقيقة وليس خيالاً ضرب أحد الرجال ضربة قوية فارتعد الآخرون، فأدرك أنه الزعيم الحقيقي، فقرر أن تعرف الناس الوجه الحقيقى لشنيدَر، هو لا يعرف كيف يعطـى الأوامـر، ولا يعرف كيف يتعاملَ مع الناس. أهل الحى يعرفونه جيداً هو لـيس بغريب عليهم، وجاء الوقت ليعرفوا أن شنيدَر الذى كان مشهوراً فى الصغر بقتل الذباب لابد وأن يعملوا له ألف حساب لأنه قـرر أن يجعلهم ذبابه فى الكبر. والآن لابد أن يطرق على الحديد وهـو

ساخن. وضع زجاجة براندى على فمه ولم ينــزل بهــا إلا وهــى فارغة تماما وكأنه على رهان مع نفسه، ثم ابتلع بعــض الحبــوب، وضع الحلة حول بطنه وأحكم ربطها، تساءل الكثير عن سر الحلة حول البطن: هل شنيدَر مصاب بداء فى المعدة؟ أو يحمى نفسه من ألم قديم يود ألا يتكرّر؟ ولكن لم تكن هناك إجابة محــددة. شــعر للحظات معدودة بذكريات الطفولة المعذبة تســير أمــام عينيــه كشريط سينمائي، ضغط بقبضة يده على سيفه، فكر مع نفسه أن يقتل بلا مبرر، فقط لأنه تذكر كل هذه الذكريات الأليمة، قرر أن يعطى الأنذال درساً لا ينسى ويجعلــهم يختبئــون فى منــزلهم كالفئران، سوف يضرب بسيفه على قفاهم بدلاً من يده، والويــل لمن يعترض طريقه من الآن وصاعداً، بدا متحدياً كارهــاً نفســه والعالم حوله، تفجر الشرر من عينيه وأرسل نظرة مخيفــة لرجالــه جعلتهم يرتعدون فى مكانهم فقال واحد من ماسحى الجوخ عندما رأى الجنون واضحاً على ملامحه:

– تحت أمرك يا معلم شنيدَر.

– من اليوم بدأ عصر جديد.. عصر شنيدَر.. عصــر لــن تــرى الحسينية قبله أو بعده.. هيا بنا يا رجال.

كان من سوء حظ صاحبنا "أشرف زنجي" أنه أول من تقابل معه على الطريق، وتذكره شنيدَر على الفور.

كان أشرف قد تغير تماما وأصبح إنساناً مختلفاً عما كان وهــو طفل، وحدث ذلك بعد وفاة والديه ثم أصبح مسئولاً عن أســرته المكونة منه ومن ثلاث أخوات تَعَلَّقْنَ فى رقبته، يعمل بكــل جــد ليطعمهم. بجانب أنه يقرأ القرآن ويقيم الصــلاة فى مواعيــدها، وارتسمت على ملامحه علامات الطيبة والتقــوى، وكــان كــثير

السلام على الناس من يعرفه ومن لا يعرفه، يتقابل مع شخص مرتين فى ساعة واحدة فيلقى عليه السلام مرتين بوجه بشوش.

عندما تقابل شنيدَر معه حدث له ما يحدث فى أفلام الدراما الهندية، عندما يتذَكر البطل فى لقطات سريعة (فلاش باك) الأعداء وهم يعذبونه، زاد على ذلك أن فلاش باك شنيدَر كان مختلفاً ممزوجاً بكل ألوان الطيف السبع من أثر الخمرَ المغشوش، وثعابين وأسود وجميع أنواع الحيوانات تتصارع معه من أثر الحبوب المخدرة. قال أشرف فى تسامح شديد وبلغة جديدة لا يعرفها شنيدَر وطيبة أصبحت مرتسمة على ملامحه:

- السلام عليكم يا أخ شنيدَر.

رفع شنيدَر سيفه إلى أعلى وهو يقول فى حدَّة:

- وكمَان بتقول السلام عليكم يا ابن العاهرة.

ثم هوى عليه مرة واحدة، فصرخ أشرف من الألم، ووقع على الأرض من شدة الضربة والألم، فأخذ ينهال عليه دون أن يحدد أماكن الضرب بالضبط كالفتوات المحترفين فى ضرب السلاح. وعندما أدرك رجال شنيدَر أنه يضرب بكل قسوة وغشم وقد يقتله فى ثوان معدودة، أبعدوه عنه وقال أحدهم متظاهراً بالمساعدة:

- اتركه لي.. سوف أتكفل به يا معلم.

- اخلع عنه ملابسه واجعله كما دفعته أمه يوم ولدته.. وضَعْهُ على عربة كارو ثم ضعوا فى مؤخرته عصا غليظة.. وسيروا به أمام الناس ليكون عبرة لهؤلاء الرعاع.

وطلب من آخر أن يهرع إلى الأمام ويأمر أصحاب جميع المحلات والمقاهى بالإغلاق والويل لمن لا ينفذ.

وفجأة ظهر للحيّ وحش كاسر جديد لا يقوى عليه أحد، يملك من الجرأة ما يفزع الشياطين، ورغم أنه نحيف البنية وهناك من هو أكثر منه قوة جسمانيا لكنهم خشوا أن يدخلوا معه فى تشاجر لأنه غشيم سلاح وقد يقتل من يجرؤ على التعارك معه، ويزيد على ذلك جرأته التى لم يشاهد أهل الحى مثلها من قبل، حرق بعض الحوانيت بالقصد وضرب بعض الرجال الأبرياء مؤمنا بالمثل الشائع "اضرب المربوط يخاف السايب" فى طريقه إلى باب الفتوح كان قد نفذ ما دار فى خاطره، حاول الاستفادة من نزوله إلى الحى وبحث عن تجار الحشيش بالجملة أو بالقطاعي، ولكنهم جميعاً كانوا قد اختفوا. عند باب الفتوح كانت الشرطة فى انتظاره لتقف مسيرته (مثلما حدث مع صديقه فرج) ولكنه قرر ألا يكون مثل صديقه، فتصدى لهم بالسلاح واستطاع أن يأخذ منهم أمين شرطة رهينة وهدد بقتله، فأدركوا خطورته وتركوه، فترك لهم أمين الشرطة، وفر بعدها إلى المقابر.

وفى نفس الليلة كلفه أحد أثرياء الحى بالتعارك مع أحد أفراد عائلة حسن بلاص نظير مبلغ من المال، رفض شنيدَر أن يأخذ المال وقام بعمل ذلك من واجب المجاملة، فذهب شنيدَر مع رجاله بالقرب من جامع البيومى ودخل الوكالة وحدَه، وأمسك بأحد رجاله وأخذ يضربه، وإذا بالوكالة كلها تهجم على شنيدَر ورجاله، ففر جميع رجاله فى هلع ولكنه وقف وحده وقاومهم كالوتد متحملاً كل أنواع الضرب، وعندما طرحوه أرضاً أخرج مسدسه وأطلق عياراً ناريا فى الهواء، فطار الجميع من أمامه كالعصافير عندما تهتز شجرتهم، فنهض من على الأرض وعاد رجاله غير مصدقين ما رأت أعينهم، وبدأ فى التعارك مرة أخرى، ومن إحدى

الشرفات خرج الموظف عادل صارخاً بصوت عالٍ دون خوف أو تردد قائلا:

– يا حارة وسخة يا رعاع يا أولاد الكلب.. زوجتى بتولد وأريد أن أذهب بها إلى المستشفي.

يطلب شنيدَر من أعدائه التوقف ليسمح للمريضة بعبور الشارع، فيلَبون الطلب، وكان مشهداً من المشاهد التى تراها فى فيلم توقفت به الصورة، ولكن الجميع فى حذر شديد، ناهيك عن أن الموظف عادل الغلبان (كما يطلقون عليه) لم يصدق أنه قال ما قال، وفعل ما فعل، لقد كان كل ما يهمه زوجته والطفل، وعندما سارا وهو يساند زوجته بحذر شديد، لاحظ العيون المتربصة لبعضها البعض والجرحى على الأرض ينزفون دماً والزجاجات المحطمة، كاد أن يتبول فى ثيابه من هول ما رأى ولكنه تماسك مع نفسه وتظاهر بالقوة وهو يسير معها بحذر شديد، وأدرك أن المشاهدة من النوافذ والشرفات تختلف تماماً عن أرض المعركة. وبعد عبور خط الأمان تواصلت المعركة مرة أخرى، وانتصر شنيدَر وخطف شربات، جميلة وفاتنة الحى وبنت أكبر تاجر مخدرات (يسكن السجن) فى الحسينية ودائما ما يقول لها:

– أنت أجمل انتصار لى فى حياتى.

ومنذ ذلك اليوم لم يصدق الموظف عادل أنه سب ولعن شنيدَر ومازال حياً يرزق، ولكنه من حين لآخر يفتخر بأنه الوحيد فى الحى الذى سبه، ولكن عندما يسمع سيرة شنيدَر وقدومه للحى يكون أول الفارين كالحمام.

وفى يوم وليلة أصبح شنيدَر بطلا مغواراً لا يقهر وحكايته تتدوالها الألسن، وبالطبع افتخر به أهل الحى لأنه أصبح عدو

الحكومة، وكل من هو عدو الحكومة ومقاوم لها فهو محبوب بنـــاءً على طلب الجماهير. زادت شعبيته وحلــف النـــاس برجولتـــه وتساءلوا كيف لهذا الطفل التافه أن يتحول إلى وحش كاسر؟ وأن يقف فى وجه الحكومة.

احتار رجال الحكومة فى أمره لأنه لا يتـــاجر فى الممنـــوع ولا يسرق، وبات من الصعب القبض عليه وإيداعه السجن أو المعتقل، وإحرازه للسلاح من السهل عليه إخفاؤه وقت القبض عليه.

(٦)

عندما خطف شنيدَر شربات شعر لأول مرة فى حياتـــه بطعـــم الحب، وبعد أن مَارس معها الجنس (غصباً) أخذت تبكى بحرقـــة شديدة على فقدالها لغشاء بكارقما، لم يتردد لحظة واحدة فى طلب يديها، فرفضت، وهى تلعنه وتضربه بكل ما تملك من قوة علـــى صدره وهو يقف متحملاً، فشعر بتأنيب الضمير وقرر أن يتركهـــا تعود إلى أهلها، وتألم ألماً شديداً لفراقها، وندم على ما فعل وتوقف عن البلطجة وأصابته أعراض الحب، فرقد بســـريره يـــومين دون الحديث مع أحد، وعندما دخل عليه أحد رجاله "بانجو" لم يعجبـــه الحال. بانجو أحد الرجال المقربين من شنيدَر، وهو الذى أطلق عليه "بانجو" لأنه يدخنه بشراهة، يدخنه كسيجارة عاديـــة، ومشـــهور بحرفية شديدة فى لف الصاروخ (كما يطلقون علـــى الســـيجارة الملفوفة) وسرعة فى الأداء. أبلغه أن شربات فى الثلث الأول مـــن الحى بالقرب من باب الفتوح فى البيت العتيق عند الترزى فسأله:

– هل تود أن نأتى لك بها؟

– لا.. أنا لا أريد خطفها مرة أخرى.. أنا أحبها ومـــن يحـــب لا يخطف.

– أنا أخشى عليك من هذا الحب يا معلم. سامحنى يا معلم شربات ليست للحب.. شربات للمتعة فقط.

صفعه على وجه صفعة قوية قائلاً:

– اخرس يا كلب.. لا تتحدث عنها هكذا.

داري بانجو غضبه وهو يتحسس خده ورحل ببطء شديد مـــن أمامه فشعر شنيدَر بالأسف عما فعل معه فقال له معتذرا:

– سامحنى يا بَانجو.. أنا لست فى حالة طبيعية هذه الأيام.. ســـوف أذهب إليها وحدي.

فالتفت بانجو إليه قبل أن يخرج من الباب وقـــال وهـــو مـــازال يتحسس مكان الصفعة:

– هذا خطر عليك.. أنت تعلم أن الثلث الأول من الحى قريـــب من القسم.. والتعارك فيه وحدك خطر قد يقصف عمرك فى لحظة.

لم ينصت شنيدَر إلا لنداء الحب، لقد اشتاق إلى رؤيتها شـــوق الصحراء للماء، وأدرك أنه فى تلك الحالتين معذب، بحبها وفراقها معذب، وبالمخاطرة من أجلها قد يعذب، ولكن عـــذاب الجســـد أهون من عذاب الروح. فارتدى الحلة على بطنه وحمل مسدســـه وارتدى بالطو قديماً ووضع على رأسه كوفية من الصوف يقـــوم باستخدامها وقت الشدة لتخفى وجهه. ولف سيفه بقطعـــة مـــن القماش وربطه بطريقة سهلت عليه انتزاعه بسرعة وقت الشـــدة وفى نفس الوقت يبدو كأنه لا يحمل سلاحاً.

عندما وصل إلى باب الفتوح استند بظهره على الباب الأثـــرى العتيق الذى يصعب فتحه أو إغلاقه، كان يؤمن (كفتوات العصر

القديم) بأن الغدر والخيانة لا يأتيان إلا من الخلف، فاستند بظهره على الباب وسيفه فى يده. استغرب بعض الناس عندما نحوه وفروا من أمامه بسرعة ولكنهم وقفوا على مبعدة منه مدركين أنه قادم لمعركة ولابد للمشاهدة، فتعجبوا لجرأته وقوته وجبروته، أن يأتى إلى الثلث الأول المليء بالمخاطر ورجال الحكومة والمخدرات وأسياد الحى ذوى المراكز المرموقة فى المجتمع بلا خوف أو تردد، هذه جرأة لم يروا لها من قبل مثيلاً.

وقف وحيداً، ولا أحد يعرف ما يدور بخاطره، يترقب البيت العتيق الذى يسكنه الترزي، آجلاً أو عاجلاً سوف تخرج شربات من هذا المنزل وسوف ينهى معها هذه القصة. وعندما لمحها على بعد أمتار، أبصرها كالصقر الذى يتابع فريسته، سلكت طريقها نحوه دون أن تنتبه له، وعندما اقتربت منه رفع سيفه أمامها فلامس ثديها، فرفعت بصرها نحوه ولم تظهر أى خوف أو قلق، فألقت عليه نظرة الحائر المتردد متسائلة مع نفسها: أتقتله الآن أم تعذبه أولاً؟ نظر إليها نظرة العاشق المتوسل المستعطف وقال فى صوت خفيض:

– شربات سامحيني.. أنا أحبك.. فى حياتى لم أحب أحدا مثلما أحببتك. ولكى أثبت لك حسن النوايا.. أنا مستعد للزواج منك الآن.

ثم أنزل سيفه بجواره واستخدمه كعُكّازة يستند عليها فشعرت بضعفه فقالت وهى تلف وتدور حول نفسها لتعرض له جمالها.

– أنا شربات.. وشربات لا تتزوج بهذه الطريقة.

– وماذا تريدين؟

- ماذا تملك لكى أتزوجك؟ كل ما تملكه سيف وعصـا وحلـة وبعض البلطجية لا قيمة لهم سوى السرقة من أجـل الكيـف.. ويتعاركون مجانا من أجل المحبة والجدعنة.

- ماذا تعنين؟

- أعني.. هل رأيت دولة تضرب دولة أخرى من أجـل سـواد عيون هذه الدولة، أفقْ يا غبي، هذا الزمن انتهي.. ومَنْ تحارب مِنْ أجلهم عندما يقفون على الأقدام سوف يكونون أول الأعداء.

- أنا أريد أن أصلح خطئى والزواج منك.

- حتى هذا الزمن انتهي.. زمن غشاء البكارة والفتـاة المسـكينة انتهي.. أنت لا تريد أن تفيق لنفسك.. ماذا تملك؟

- قلبى صاف ومستعد لكل تضحية تطلبينها.

- كل ذلك دون المال.. يعنى لا شيء.

- ماذا تعنين؟

- اسمع.. انتظرنى غداً سوف آتى إليك أو ربما يكون اليوم التالي.

تركته وعادت من حيث أتت، وعاد هـو إلى المقـابر حيـث يسكن، فى طريقه أخذ يفكر فى الأمر، أدرك أنها على حق، كيف لم يفكر فى هذا الأمر من قبل؟ لكى يتزوجها لابد من المهر والشـقة والأثاث، وهو لا يملك ثمن علبة سجائر. وإذا ذهب لمن سـاعدهم فى مشاجرة من قبل بالطبع لن يبالوا، إنه يحيا هكذا مثل الأوبـاش والرعاع الذين يعيشون على حسنة الغير، هو يملك كل هذه القوة فلماذا لا يستغلها. مما لا شك فيه أنها لمست وتراً حساساً عنـدما صدمته بحقيقة وضعه المادى المخجل.

شربات قررت أن يكون لقاؤها معه بعد أسبوع بعد أن علمت من أحد رجاله أنه يحبها بجنون ولا يسـتطيع الاسـتغناء عنـها،

فأرادت أن تعذبه وتلوعه، وعندما عادت إليه كانت قد رتبت لـــه ما سيفعل.

كان أسعد يوم فى حياة شنيدَر يوم عودة شربات لـــه بمحـــض إرادتها، شعر بقوة غير عاديةَ وظن أنها فعلا تحبه، وإذا كانـــت لا تحبه فلماذا حضرت إليه؟ لقد انتظر أسبوعاً ومر عليه كأنه أعـــوام طويلة، أمضاها بين الشكوك واليقين وفقدان الأمل. لم يخطر علـــى باله أبدا أنها عادت للانتقام، وظن أن رجوعها بســـبب الحـــب، حاول أن يقبلها ويعانقها بلهفة ولكنها رفضت بكل رفق ودلـــع وقالت:

– لندع ذلك فيما بعد عندما تملك مهري.. وعندى لـــك بعـــض الخطط وما عليك سوى العمل.

– ليس لى عمل.

– إذاً اترك لى هذه المهمة.. فقط اسمع كلامى ونفـــذه بـــالحرف الواحد وسوف تصبح مليونيراً فى غضون سنوات قليلة ونتزوج.

– يا شربات أنا أريد أن أضعك فى مرتبة النساء الشـــريفات الآن وأقطع لسان أى مخلوق يقول عنك كلمة واحدة.

– علمتنى الحياة.. قوة بدون مال ومال بدون قوة لا شىء.. وأنـــا لست على استعداد للزواج من رجل مفلس.

أدرك شنيدَر على الفور حبها الشديد للمال، وأمام رغبة الجسد والحب، أَصَبح لا يبالى وسوف ينفذ كل طلباتها بالحرف الواحـــد. فشجعته بطريقة نسائية علـــى الســـرقة والســـطو والتجـــارة فى المخدرات وأصبحت هى العقل المدبر لعصابته وهو المنفذ لكل مـــا تطلبه، ولكنه أيضا عندما أدرك حبها الشديد للمال أخـــذ يـــدفن

الأموال المسروقة فى مقبرة، وعندما كانت تسأله عن أموال العمليات التى رسمتها له يقول لها:
– أنا أدخرها لمهرك.. لا تقلقي.
كان ينفق عليها ببذخ شديد، هذا ما جعلها تبقى معه، لكنها ودَّتْ أن تعرف طريق المقبرة التى يخبّئ بها الأموال.

(٧)

عندما خرج فرج من المعتقل لم يجد مأوى سوى المقابر عند صديق الطفولة شنيدَر، ولكنه لم يدرك أن صديق اليوم يختلف عن صديق الأمس. والأخير لم يَعِ أن فرج قد تغير للأفضل وأصبح خبيراً فى عالم الإجرام، والمعتقل جعل منه مجرماً من الطراز الأول، وبات يلعن السنوات التى سبقت المعتقل لأنها ذهبت هباء دون أن يستفيد منها فى تأمين مستقبله، أدرك أن لا شيء يبقى على حاله.
رَحَّبَ شنيدَر بشقيق العمر فى الشقاوة ودعاه فى منزله (حوش من أحواش المقابر) وقدم له ما تشتهى النفس من أنواع الطعام والفواكه والخمر الجيد وكل أصناف المخدرات والحبوب كتحية للضيف. جلسا على المائدة ومعهما شربات و"بانجو"، لم يرتَحْ فرج لوجود شربات وأدرك على الفور أن دخول امرأة فى حياة صديقه يعنى النهاية المحتومة للصداقة والشقاوة. آجلاً أو عاجلاً سوف تفسد هذه المرأة كل شيء بينهما. فرج لم يرث عن أبيه حبه للنساء بقدر ما ورث عنه الكذب وخفة الظل.
وأثناء تناول الطعام لم يتوقف فم فرج عن الطعام والحديث معا، يأكل بشهية مفتوحة وهو يروى عن المعتقل، ويتباهى بهذه الأيام التى قضاها هناك حيث يسكن الرجال الحقيقيون، وكيف تحمل

الصعاب وواجه عتاة السجون دون خوف أو تردد بـل انتصـر عليهم فلقبوه بجبروت المعتقل. كان شنيدَر يعرف أن نصف حديثه كذب، ولكنه شعر بالغيرة الشديدة عندما بدأت شربات تنصت له بإعجاب شديد، فأخذ هو الآخر يروى عن مغامراتـه مـع تجـار المخدرات والحكومة، وأكد بانجو حديثه بل أخذ يسرد بنفسه هذه الروايات التى أصبحت تُتَدَاوَل فى الحى كله. وبعد الانتهاء مـن الطعام أخذت شربات تصب لفرج الماء ليغسل فمه ويديه، كانت ترتدى قميص نومها الأسود وتبرز جمال ثدييها، وقـف أمامهـا يحلق فى ثدييها الأبيض الطرى غير مبالٍ بصديق الطفولة الـذى كان مشغولاً فى تلك اللحظة بالحديث مع رجل من رجاله، وعند الانتهاء حضر شنيدَر دون أن يلاحظ شيئا وأخذ صديقه إلى غرفة الحشيش (غرفة فارغة أعدت خصيصاً لحرق الحشيش، من يدخلها يبقى فيها بضع دقائق ويخرج منها مسـطولاً) دخـل الصـديقان وأغلقت عليهما الغرفة وجلسا أمام بعضـهما الـبعض.. وقـال شنيدَر:

– يا ابن العم.. لابد وأن تعرف أن شربات هى العقـل المـدبر لعصابتنا وأنا الرجل الأول.. إذا رغبت أن تكون معنـا فسـوف تكون أنت الرجل الثانى.

فى عملنا لا نتناقش ولا نتجادل وننفذ كل ما يطلب منا.

كاد فرج أن يصاب بدوخة من رائحة الحشيش الجيد، منذ زمنٍ طويلٍ لم يشم هذه الرائحة، فأصـابه بسـرعة فى رأسـه وشـعر باسترخاء شديد، ولكن الكلمات التى خرجت توا من فم صديقه أصابته بالإحباط الشديد، فأفاق لنفسه. كان يعتقد أنه سوف يعود كما كان زعيماً لهذه العصابة التى كونها بنفسه، ولم يقتنـع بهـذه

الكلمات الفارغة، ود من صميم قلبه أن يُذكّره بالماضي وأيام الضرب على القفا، وأيضا أراد أن يعرب له أنه أصبح من أهل الخبرة فى الإجرام، ولكنه أدرك أنه فى حاجة إليه فالتزم الصمت وشعر بثقل شديد فى رأسه وعدم القدرة على الحركة، قرر ألا يعترض وألا يوافق فقال ببطء شديد:

– أشكرك يا صديقي.. ولكنى أحتاج لبعض الوقت للراحة وبعد ذلك سوف أقرر.

– أترفض العمل معى يا ابن العم؟

كان فرج قد بدأ فى فقدان السيطرة على نفسه فنهض شنيدَر وطرق على الباب بكل عنف ففتحه أحد الرجال بسرعة وخَرج وهو يشير له على فرج، فذهب على الفور إليه وساعده وسانده وأخرجه من الغرفة.

فى الصباح كان شنيدَر جاهزاً ومرتدياً ملابس الشقاوة وكان رجاله خلفه جاهزين لَعملية سطو خططتها شربات لهم.. فدخل إلى غرفة نوم فرج فوجده مازال يغط فى نومه، أيقظه، ففتح فرج عينيه بصعوبة شديدة وسأله:

– ماذا حدث؟

– يا ابن العم.. نحن ذاهبون فى مهمة هل تريد العمل معنا أم لا؟

– يا ابن العم يكفينا أننى رأيتك بخير.. من اليوم لك عملك ولى عملي.. ولكننى أحذرك من هذه المرأة.

– احترس.. عن قريب سوف تكون زوجتي. أترفض العمل معنا؟

– أنا أرفض أن آخذ أوامر من امرأة؟

– منذ أن قادتنا وسفينتنا تسير بسلام ونجمع كثيراً من الأموال.

– أنا أستطيع أن أقوم بهذه المهمة، لقد تعلمت الكثير فى المعتقل.

- هى بنت إبليس، وتعلمت ذلك دون أن تعتقل، إذاً هى أفضل.
- أخشى عليك منها.
- لا تَخْشَ عليّ.. أنا أعرف كيف أحيا.. أخبرنى ماذا أنت فاعل؟
- سوف أستريح بعض الوقت [ثم نظر إليه وكأنه يلومه] ومن بعد سوف أقوم بتكوين عصابة جديدة.
- هل تريد مساعدة؟
- من لا ينظر من الغربال فهو أعمي.. بالأمس فقط خرجت من المعتقل والحالة ضنك.. وأحتاج لبعض الأيام لكى أستريح.
- استَرِحْ يا ابن العم وعندما أعود أعطيك من المال ما تشاء.
- عندما تخرج لمثل هذه الضربات ضع فى حساباتك دائما السجن أو المعتقل أو الموت قبل العودة.
- ماذا تعني؟ هذا فأل سيّئ.
- هذا ما تعلمته فى المعتقل.. ادفع حسابك قبل أن تغادر منزلك.. لأن فى مهنتنا الموت والسجن شيئان متعاقبان.

انصرف من أمامه وعاد بعد دقائق معدودة ومعه رزم من الأوراق المالية، وقال وهو يدارى غضبه ولكنه لم يستطع إخفاء حدته:
- أتمنى لك التوفيق.. وإذا احْتَجْتَ لى فأنا مازالت أخاك.
- ماشى يا ابن العم سلام.
- سلام.

تعانقا ورحل شنيدَر مع رجاله وبعد ساعات معدودة رحل فرج هو الآخر متألماً.

فى ليلة من هذه الليالى رسم الشيطان لها خطة لتقلب الحياة رأساً على عقب، ليس بين الصديقين فقط بل للحى كله. عندما

عاد شنيدَر من مهمته مع رجاله لم يجد شربات، اختفت، جُنَّ جنونه، وعلى الفور ظن أن صديق العمر خطفها، بحث عنها فى كل مكان، لم يصدق نفسه، فقد الوعى من كثرة ما شرب وبكى وهو الذى نسى كيف يبكى الرجال، وأمام رجاله أخذ يصرخ ويقول:

– لقد خاننى صديق العمر وخطف شربات.. والويل له لو وقع فى يدي. لقد كان يغار منى على نجاحى المتواصل.. ولأننى فزت بأجمل امرأة فى الحي.. كان دائماً يغار منى وأنا لا أعلم. رغم أننى الوحيد يا "بانجو" الذى وقف بجانبه فى محاربة أعدائه.. الوحيد الذى عطف عليه ومسح دموعه.. وآخر ما فعلت فتحت له منزلى وأعطيته من أموالى وها هو يخوننى ويتعامل معى وكأننى كلب أجرد ضال. الويل له.. الويل للخائن. من يعثر عليه أو يعرف مكانه فله منى مكافأة يستطيع بها أن يحيا ما تبقى من عمره فى أمان بلا خوف من المستقبل.

عندما عادت شربات إلى المقابر بعد غياب يومين لم يكن أحد موجوداً بمنزل شنيدَر سوى بانجو الذى كان يجلس على بابه ويدخن سيجارة ملفوفة، ولم يصدق ما رأت عيناه، كانت قد مزقت ملابسها ولخبطت شعرها وبدت كما لو أن عصابة من الرجال قاموا باغتصابها. سألت عن شنيدَر فنهض من مكانه وقال:

– لقد ذهب مع الرجال فى البحث عَنك وعن فرج.. أين كنت يا ست شربات؟ وماذا حدث؟

– بانجو أريد أن أسألك سؤالاً وتجيبنى عليه بكل صراحة.. أين يخبئ شنيدَر النقود؟

– أنا لاَ أعرف يا ست شربات.. لا أحد يعرف.

- بانجو أنت ذراعه الأيمن ولا يخفى عليك شيئا.
- صدقيني يا ست شربات أنا لا أعرف.. هو حريص جدا.

خلعت فستانها من أعلى وكشفت عن ثدييها، فشعر بسخونة شديدة والتفت حوله ليتأكد من عدم وجود أحد، فسحبت يديه ببطء ووضعتهما على ثدييها وهى مازالت تمسك بهما وسألت بعين زائغة وشهوة زائفة:

- هل تشعر بهما؟
- ست شربات. وأخذ يتصبب عرقاً فسألته:
- أين النقود يا بانجو؟
- كل ما أعرفه أنه يخبئها فى مقبرة.. ولا أحد يعرف طريق المقبرة سواه.
- هل تمتعت يا بانجو.. أزاحت يديه بعيدا فحاول أن يضمها ويقبلها ولكنها صدته مستطردة:
- عندما تعرف طريق النقود تستطيع أن تملكني.. وسوف نعيش ليالى أجمل من ليالى ألف ليلة وليلة.

ودخلت إلى المنزل وتركته يتصبب عرقاً، غير مُصدِّق نفسه فأسقط جسده على الأرض وجلس مذهولاً ثم نهض وشدَّ سرواله وأحكمه حول وسطه وجلس مرة أخرى، أخذ ينشف عرقه وحاول أن يلف سيجارة ولكنه فشل.. فشلِ فشلاً ذريعا، لقد كانت أعصابه متوترة للغاية، وعقله مشغولاً ومازال يعيش حمى الحلم الشرباتي.

كانت ترقد على بطنها على السرير النحاسيّ عندما عاد شنيدَر، أخذت تبكى باصطناع شديد، حاول أن يمسك برأسها وشَعرها ويلفها نحوه ليستعلم الأمر، وهى ترفض وتبكى بحرقة

مصطنعة، ثم قامت بتأليف قصة من خيالها الخاص عـــن الصـــديق الذى خطفها واغتصبها ببشاعة وخان الصداقة بكــل ســهولة، وصَدَّق شنيدَر قصتها على الفور وكأنه كان يبحث عن سبب مــا ليعبر عن مَقته وكرهه له، حتى رجاله صدقوا تمثيليتــها الســخيفة عدا "بانجو" الذى كان هائماً بما حدث له، وأيضا تذكر الصــفعة القوية التى أخذها بسببها يوما ما وأثَرَها المتراكم بداخلــه، لقــد حذره من قبل ولم ينصت، فتركه يقع فى المحظور، بجانب أنه قرر أن يعرف طريق المقبرة من أجل أن يعاد هذا المشهد الذى أدرك أنــه لن يتكرر مرة أخرى إلا بوجود النقود.

أبلغته رسالة شفوية من فرج، أنه ينتظر لقاءه بالقرب من مقابر الخواص وسوف يكون اللقاء الأخير بينهما.

أدرك شنيدَر على الفور أنه كمين من رسم الحكومة، فــرج لا يجرؤ على إرسال مثل هذه الرسالة الشفوية، ورغم ذلك قــرر أن يذهب إليه حتى لا يوصف بالضعيف وما عليه سوى أخذ الحــذر، وضع الحلة حول بطنه والسيف فى يــده، والمســدس فى جيــب الجاكيت وذهب للقائه.

(٨)

فى تلك اللحظة كان أخينا رقم (٢) علـــى أهبـــة الاســتعداد لمواجهة شنيدَر، ولكنه لم يدرك أن شنيدَر كان فى عالم آخر.. عالم الأخذ بالثأر من صديق العمر فرج الطَويل، وكل مـــن اعتـــرض طريقه كان يرقد فى الشارع عائماً فى دمه. شربات كانت علـــى مقربة تهمس فى التليفون:

- نعم، شنيدَر فى طريقه الآن لفرج الطويل.. ماذا أفعل الآن يـــا حبيبي؟

فقال شنيدَر لأخينا:

- أتذكركَ جيدا.. وكنت أود من صميم قلبى أن أراك فى وقـــت غير هذا الوقت.. ولكن دعنى أرد لك الجميل القديم. ارحل مـــن هنا.. الدماء سوف تكون للرُّكَب. وأنا لا أريد أن يصيبك الأذى.

استغرب الأمر ولم يصدق أخينا نفسه وأدرك أن التسرع قـــد يضيع كل شيء ولابد من التأني، ورحل من أمامه آملاً أن هـــذه المعركة ستُنْهِى حياته. استغرب أهل الحى الأمر وتســاءلوا مـــع أنفسهم كيفَ لشنيدَر أن يترك أخينا هكذا دون عقاب؟ هـــذا لم يحدث من قبل ولَكنهم عللوا ذلك بأن أمـــه الســـت الطـــاهرة استجاب الله لدعائها فى حفظ ابنها. ثم اتجه نحو المعركة وطلب من أحد رجاله أن يأخذ شربات إلى المقابر.

حاصر الضابط مصطفى سليم ورجاله أرض المعركـــة، منطقـــة الخواص، وطلب منهم ألا يتدخلوا قبل أن تنتهى المعركة ووقـــوع أحدهما قتيلاً، كما نبه عليه رئيسه فى العمل. كان الضـــابط غـــير مقتنع بهذه الكلمات التى صدرت من فمه، ولكنه وجد نفسه مجبراً على تنفيذ الأوامر، كانت فكرة رئيسه ما هى إلا لعبة تتلخص فى أن يقتل أحدهما الآخر ويتم القبض على القاتل بحجة قوية تنـــهى بحياته فى السجن أو الإعدام وهكذا يضرب عصفورين بحجر واحد وتعود الحكومة لتسيطر على الحى بأكمله من جديد.

أرسل مصطفى سليم صبيّاً يعمل مرشداً ليدل شنيدَر على طريق فرج ويسهل عليه المهمة. كان فرج يرقد فى كوخ قَريب من المقابر لا يعلم شيئاً عما خبأه له القدر، وعندما وصل شنيدَر للكوخ فتح

بابه فتحة صغيرة فكشف عن حجرة صغيرة خالية من كل شــيء عدا مرتبة يرقد عليها فرج. تعجب الأمر، فقد ظن أن فرج ينتظره ومعه عصابة من الرجال، سأل رجاله أن يعودوا إلى حيث كـانوا وسوف يقوم هو بالمهمة وحده، ودخل عليه وهو يغـطّ فى نـوم عميق، وبدون وعى نـزل عليه بالسيف بكل عنـف وغضـب، وقبل أن يفيق من نومه كان كل شيء قد انتهي، ودخـل فـرج الطويل فى تعداد الراحلين. وبالطبع كان من المحظوظين لأنه نـام نومته الأخيرة دون أن يعلم أن صديق العمر هو الذى أراحه مـن هذه الدنيا.

خرج شنيدَر بكل هدوء بعد أن فعل فعلته فى دقائق معدودة. لم يستطع الضَابط الذى كان يتابع الموقف على بعد عدة أمتار رؤيـة ما حدث بداخل الكوخ، وعندما لمحه خارجاً من الكـوخ بهـذه السرعة ظن أن شنيدَر تراجع عن قراره، لقـد توقـع اسـتمرار المعركة لساعات طَويلة، فنفر فى مكانه وطلب من رجاله التـزام الهدوء وعدم الحركة، ولكنه لم يَعِ أن المعركة قد انتهت قبـل أن تبدأ، ولم يتخيل أحدٌ فى الحى أن شنيدَر سوف يوقع بغريمه صديق العمر وجبروت المعتقل فى دقائق معدَودة، وعند اكتشاف الجريمـة كان شنيدَر قد اختفى تماماً ولم يعد له أثَرٌ ومعه شربات التى ظـن أنها سوَف تحميه وقت الشدة.

فى اليوم التالى، عندما أفاق شنيدَر لنفسه أدرك أنه فعـلاً قتـل أخاه وصديق عمره دون أن يفكَر بالأمر هل هو مذنب حقـاً أم برىء.

كانت شربات تجلس فى صالة الحوش على سلم خشبى وتقـص أظافر أصابع قدميها وفخذاها البيضاوان عاريان، وشنيدَر يجلـس

أمامها كالتلميذ الخائب الذى رسب فى امتحانه، يدخن سيجارته، وبدا يرتسم الحزن والأسى وتأنيب الضمير على ملامح وجهه فسألها:

– شربات قولى لى الحق.. هل فعلا فرج خطفك واغتصبك؟

– وإذا قلت لا.. هل ستقتلنى أنا الأخرى؟ أنا لم أطلب منك أن تقتله. أنت دائما متعطش للقتل.. حتى صديقك.

– شربات أنا حائر بالله عليك لا تجعلينى أكثر حيرة.

– اسمع، إذا أردت أن نتزوج فادفع لى المهر حالا.. من اليوم.. أخشى أن أكون بجوارك دون أن تربطنا علاقة شرعية.

– سوف أتزوجك يا شربات وسوف يكون حفل زفافنا أكبر حفل فى الحي.

– كيف وأنت مطلوب من الحكومة على جريمة قتل؟

– أنا مازالت شنيدَر.. شنيدَر قاتل الذباب فى الصِّبا والرجال فى الكبر.

دعا رجال شنيدَر أهل الحى إلى حفل زفافه من شربات، ووعدوا الجميع بأنها ستكون ليلة كبيرة لم ير الحى قبلها أو بعدها مثيلاً لها، الطعام والشراب وكل أنواع الخمور والكيف متوفرة ومجاناً، وعد شنيدَر الجميع بأن ترقص شربات رقصة الوداع وهى عارية تماماً والدَّعوة عامة.

انتشر الخبر فى الحى فاجتاحه القلق والفرح معا، الفرح لما سوف يُقدِّمه من طلب اللذة مجانا، والقلق لأنهم يدركون أن الحكومة تبحث عنه، فكيف يجرؤ على عمل حفل زفافه وهو القاتل؟ وقد يحدث تصادم بالسلاح بينهم.

لم يدرك أهل الحى أن الدعوة الموجهة لهم ما هى إلا خبطة قوية من القدر قد خبأها لهم، لقد قرر شنيدَر أن يقيم فرحه فى مغارة أثرية قديمة بين باب الفتوح ومقابر باب النصر، حوائطها تبدو صلبة وإن عفى عليها الزمن وسقفها يعشش به الخفافيش، ولها بابان واحد خلفى مغلق ويصعب على البلدوزر تحطيمه والباب الآخر أمامى مفتوح ويحتاج لبعض الرجال لفتحه أو إغلاقه، والمغارة بها نافذتان متقابلتان قريبتان من السقف ويصعب الوصول إليهما، وعليهما أسياخ حديدية متينة. المغارة تبدو كالمعتقل القديم، رائحة الماضى ملتصقة بالجدران.

فى صباح يوم الزفاف، قام بعض الرجال بتنظيفها وتوضيبها بناءً على طلب العريس الذى أراد أن تكون ليلة زفافه ليلة تاريخية، فقاموا بتنظيفها وفرشها على أكمل وجه، ووضعوا موائد الطعام على الجانبين بطول المغارة، وخشبة المسرح أمام الباب الخلفى المغلق، وعلقوا الزينة فى كل مكان بالمغارة، والأضواء ذات الألوان المختلفة جعلت ليل المغارة نهاراً، رجال شنيدَر كانوا يتابعون العمال بحذر شديد، وضعوا الطعام والفواكه والحلويات والمشروبات وكل ما تشتهى الأنفس على الموائد، وأركان المغارة كانت مُعَدَّة لتدخين الكيف، وفى أحد الأركان بار صغير به كل أنواع المشروبات الكحولية، وبعد صلاة المغرب كانت المغارة جاهزة لاستقبال الضيوف والعروسين.

أخذت الحكومة موقعاً مناسباً لمحاصرة المكان وانتظروا وصول العريس بفارغ الصبر، كان الضابط مصطفى سليم غير مقتنع بأن شنيدَر سوف يقع بكل هذه السهولة، ومهمة القبض عليه لابد وأن تكون بأقل الضحايا. فأخذ معه الشيخ يونس وأخذا يلعبان

الشطرنج معاً فى انتظار ظهور العريس. شنيدَر لم يَخْفَ عليه أن الحكومة قد دبرت له كميناً، ولكنهم لم يتوقعوا أنه هو الآخر قد دبر لهم عملاً شيطانياً سوف يعكفون على دراسته فى عالم الإجرام لسنوات طويلة.

وقف استئناف أمام باب المغارة يُرَحِّبُ بالضيوف، ورجال شنيدَر بالداخل ينظمون الموائد ويُجْلِسُون الضيوف، كان أول الحَاضرين مجموعة من المقطوعين الباحثين عن مجانية الكيف أكثر من حضور حفل الزفاف، رحب بهم على الفور وأدخلهم إلى المغارة، لم يصدقوا أنفسهم وما رأت أعينهم من طعام وشراب، على الفور دعوا أنفسهم على الطعام والشراب، وهلّ بعدهم صحبة من الناس المُجْبَرين من بعض رجال شنيدَر، وخلفهم مجموعة انتابهم الفضول (كيف لمجرم كشنيدَر أنْ يقيم فرحا والحكومة تطارده؟) فرحب بهم استئناف، ومن بعد توالت الأعداد واختلفت الأسباب، ولكن الأغلبية حضروا لرؤية شربات ترقص عارية.

هلّ أخينا رقم (٢) وقد رسم خطة محكمة فى خياله لا بديل فيها عن خطف شربات والعيش معها حتى لو كلفه ذلك حياته. لقد قرر ألا يتركها لهذا الوحش المفترس، كان على أشد الاستعداد أن يوقف هذه المهزلة حتى لو اضطر أن يرتكب جريمة أو ذهبت حياته ثمناً لحبها. وكان هو آخر الداخلين للمغارة. وأثناء انشغال الجميع بالطعام والشراب أغلق الباب الأمامى الحديدى (دون أن يشعر أحد من المدعوين) بطريقة محكمة من ألواح خشبية ثقيلة وأسياخ حديدية، وأصبح من الصعب فتح الباب من الداخل.

اشتد الزحام بالمغارة، شرب الخمـر مـن شـرب.. وتعـاطى الحشيش من تعاطي. وخرج صوت صارخاً:

– أين العرسان؟ فخرج آخر متسائلا:

– أين شربات؟ متى سترقص لنا؟

ظهر على المسرح أحد الشباب الخائبين أكثر منه مسـطولاً أو ثَملاً، مُمسكاً بيده ميكروفوناً يدويّاً (بالبطارية) وغنى لهم بصوت أجَش، ورغم أنه بدا أفضل بكثير من الأصوات الشبابية الجديـدة إلا أنهم طلبوا منه أن يهبط بسرعة من المسرح، رفـض، وأخـذ يرقص ويهز مؤخرته، فقذفوا عليه بعض الطعام فنـزل وهـو يحمل خيبته على عاتقه، هتف الجميع طالبين شربات أن ترقص لهم رقصة الوداع، أخذ أحد رجال شنيدَر منه الميكروفـون، وصـعد على المسرح وقال:

– أعزائى نحن فى انتظار العروسين.. وعند حضورهما سوف تكون المفاجأة الكبرى.. فعليكم بالصبر.

أدرك أخينا أن مهمته فى المغارة شبه مستحيلة وسط هذا الزحام الشديد ورجال شنيدَر المسلحين، قرر أن يخرج خـارج المغـارة ويصطاد فريسته من الخارج، وعندما وصـل إلى البـاب وجـده مُغلقاً، أخذ يدق على بابه بكل قوة فشعر الجميع والتفوا حولـه، رفع استئناف من الخارج قطعة من الحديد الصغيرة فى حجم كـف اليد معلقة على العين السحرية، واستطاع من خلالهـا أن يـرى الجميع.. فسأله أخينا:

– افتح يا استئناف.. ضحك ضحكة ساخرة وقال:

– تمتع بحياتك يا ابن الست الطاهرة.

– قلت لك افتح.. أريد أن أرحل من هنا.

– دخول الحمام ليس كالخروج منه.. تمتع بحياتك ها.. ها.. ها
– ماذا تعني؟ أنا أريد أن أرحل من هنا.
– لابد وأن تنتظر حتى يأتي المعلم شنيدَر..
– متى سيأتي؟
– الله أعلم.. ها.. ها.. ها..
توقف الضابط عن اللعب ونهض وهو يمسك بمنظارٍ صَوَّبَهُ نحـــو المغارة.. فسأله الشيخ يونس:
– ماذا حدث؟
أنـــزل المنظار عن عينيه.. والشيخ ينظر إلى رقعـــة الشـــطرنج مستطرداً: العروسان لم يأتيا بعد.. وزيرك فى خطر.
انتابه قلق شديد.. وقال ببحّة صوته العميق وببطء شديد:
– هذه كارثة.. لقد أغلقوا عليهم الباب.. ما كنت أخشى منــه حدث. الإدارة لم تستمع لي.
– إذا استمعوا لك يعنى أنك أفضل منهم ولابد أن تجلـــس أنـــت على كراسيهم.. وهذا لا ينفع فى بلدنا.
أخذ منه المنظار وصَوَّبه نحو المغارة وقال:
– ها هو العريس قد حضر وحده.
خطف الضابط منه المنظار بسرعة وتَحقَّق مما قال، فأبصر شنيدَر مع بعض رجاله وكل منهم يحمل سلاحاً فى يده، ثم لَوَّحَ بإشـــارة لأحد رجاله، ولم تمر ثوان معدودة وانقطع التيار الكهربائى داخل المغارة، فانـــزعج الجميع وحدث هرج ومرج وتخبط بعضـــهم فى بعض، ووجد الجميع أنفسهم فى ظلام دامسٍ لم يستطع أحـــدهم حتى أن يرى كف يده، فصرخوا صراخاً عالياً لم يسمعه أحد مـــن قبل. حاول البعض أن يصل وسط الظلام إلى البـــاب المغلـــق ولم

يفلحوا بسبب الزحام الشديد، صرخ الجميع وأدركوا أن فى الأمر خدعة، حاولوا أن يدفعوا الباب بأيدهم وبكل ما يملكون من قوة ولكن دون فائدة تذكر، أصابهم القلق حتى جاءهم صوت شِـنيدَر من ميكروفونه وهو يقول بصوتٍ عالٍ:

(٩)

أعزائى أهل حارتى.. اعلموا جيدا أننا جميعا بخير، لقد قامت الحكومة الفاشية – عدوّنا – بقطع الكهرباء عنّا.. ولكننى أعدكم أننى سوف أصلح ما أفسدته الحكومة الطاغية.. المطلوب منا جميعا أن نتحمل عذاب الظلام.. حتى أخرجكم إلى النور بنفسي. نحن محاصرون من قبل الحكومة، ولكن أنا ورجالى أقوى منهم، وأنتم معى بالطبع.. لى بعض المطالب أرجو أن تهتموا بها.

١– الصبر.. حتى ننتصر على العدو.. ونكمل احتفالنا.

٢– الصمت.. فالكلام يزعجنى ويعطل مسيرتى لأننى أفهم أكثر منكم.

٣– الرضاء بما أقدم لكم من مأكولات ومشروبات.

٤– لا أريد شكاوى من الأمراض.. لأننى لا أملك العلاج.

تذكروا أن من يخون أو يتمرد أو حتى يحاول فسوف يكون مصيره الموت.. تذكروا أننى لم أرحم فرج أقرب المقربين وصديق العمر عندما خانني، لم أتردد لحظة فى قتله، فاعلموا أننى قررت الاحتفال بزواجى رغم أنف العالم والحكومة. تحملوا الظلام حتى الصباح.. وإياكم والشغب.. معى سوف تكون حياتكم أفضل.

أدرك أخينا أن الكلمات التى خرجت توا من فم هذا الوحش الكاسر تدل على أنهم أصبحوا رهائن، وسوف يبقون فى هذه

المغارة لفترة طويلة حتى يحقق حلمه الوردي، فشعر أنـه وقـع فى حضيض أشد عمقا مما كان فيه، وضياع فرصة عمره وحلم حياته، حدث نفسه متسائلاً "يا إلهي.. باق من الزمن ثلاثة أسابيع علـى موعد الاختبار الأخير وقد أموت هنا فى هذا الظلام ولا أحد يعلم بحالي، كيف أخرج من هذا المأزق الآن؟ كان يجب عليّ أن أفكـر قليلا مع نفسى قبل أن أخطو نحو هذه الخطوة الساذجة؟" أصـابه الغضب الشديد فأخرج مسدسه بسرعة وأطلق عدة طلقات على النوافذ فتحطمت لقطع صغيرة، ولكنه لم يُصِب الموجـودين إلا بالذعر أما المقصودون بالخارج فلم يبالوا، حدث هـرج ومـرج وذعر واختلط الحابل بالنابل والظلام لم يساعد أحداً على معرفـة من أطلق الرصاص. أزاح جميعَ الواقفين على الباب بكـل عنـف وصرخ بالقرب من العين السحرية وهو يخبط بيده علـى البـاب بكل قوة.. وقال فى صوت عال:

– استئناف.. استئناف.. أريد أن أخرج من هنـا حـالاً.. لقـد دخلتُ هنا بالخطأ.. ولو علم سيدك بوجودى لتركنى أرحل مـن هنا.. أرجوك يا استئناف بلغ شنيدَر بوجودى. أنا كنت دائما طيباً معك ولم أبخل عليك بالبقشيش والحودايـت.. اسـتئناف هـل تسمعني.. هل تسمعني؟ أنا أتحدث إليك.. أنا أتحدث إليك.. هـل تسمعني؟

جاءه صوته من الخارج يقول:

– يا ابن الست الطاهرة.. أنا هنا لتنفيذ الأوامر وسوف أعـرض حالتك على المعلم شنيدَر وهو صاحب الأمر والقـرار الأخـير.. أعدك أن أعلمه بحالكَ وسوف تنال معاملة خاصة وطيبـة لأنـك كُنتَ أرحم منهم على حالى.

أما أنت يا معلم فانوس فسوف تنال عقابك منى.. اركع.. اركع وقل أنا أبله.

التفت المعلم فانوس حول نفسه فى الظلام، خوفا من ضربة قد تأتى له عن طريق لا يتوقعه، فقال فى صوت محشور بالذعر:

– لا.. لا.. ماذا حدث؟ لماذا تفعلون معنا هكذا؟ ماذا فعلنا لكم؟ لقد أتينا هنا لتهنئتكم بالزفاف.

عندما أدرك الضابط مصطفى سليم أن موقف شنيدَر أصبح هو الأقوى بالرهائن، أرسل له الشيخ يونس للتفاوض معه.. فعاد الشيخ يونس إليه وهو حزين وقال:

– يطلب أن تعفو الحكومة عن الجريمة الموجهة إليه بقتل صديقه فرج الطويل.. وقال إنه قتله لعدة أسباب أولها: انه كان خطراً يهدد الحى كله وبذلك قدم للحى خدمة عظيمة. وثانيا: لقد عاقبه على الخيانة والغدر والاغتصاب.. ويقول إنه فعل كل ذلك من أجل الحكومة وبعلْم الحكومة.

يبدو يا صديقى العزيز أنه لن يُسلّم بهذه السهولة، فلديه من السلاح ما يكفى لمحاربة رجالك.

– سوف أستدعى الجيش إذا حكم الأمر.

– اعلم جيدا أن هذا الرجل عنيد.. وجاهل، وأنه مستعد أن يضحى بكل الناس حوله من أجل نفسه.. ومن أجل أن يجعل نفسه أسطورة فى الحي.

– لقد قرر أن يكون علامة من علامات الحي.. هذا كل ما يهمه.. على العموم أنا بلغت الإدارة وهم أحرار، لقد يئست من استخدامهم أفكارى لأنفسهم. فدعهم يقعوا فى الخطأ.

– وماذا عن الرهائن.. هؤلاء الأبرياء؟

– هؤلاء أغبياء، هم الذين اختاروه وذهبوا إليه بمحض إرادتهم.. وها هو يلعب بهم الكرة ولا يستطيعون أن يفعلوا معه شيئا. الجميع يخشى الموت والعذاب وفى نفس الوقت هم يموتون الآن فى جلدهم ألف مرة.
– أنت تتحدث هكذا لأنك تقف على الصف الآخَر، وإذا كنتَ معهم فى الظلام لأصبحتَ مثلهم.
– على العموم الوقت تأخر يا شيخنا.. اذهب أنت الآن لمنزلك وشكرا.. وربما أحتاجك فى الغد.
– غداً! هل ستترك الناس فى الظلام للغد؟
ضحك ضحكة خفيفة انتزعها بسخرية من ألمه:
– أنت طيب يا شيخ يونس.. حتى لو وجدتُ حلاً لإخراجهم الليلة بأقل الضحايا.. فسوف ترفض الإدارة، لكى يستفيدوا من هذا الموقف أطول وقت ممكن أمام الرأى العام. وسوف يتحول هذا الكلب إلى أسطورة.. أسطورة نصنعها نحن بأنفسنا.

مرت الأيام الأولى كئيبة ومزعجة ومظلمة، وفشلت كل المحاولات مع شنيدَر للتسليم دون شروط، وعندما بدأ ينْفَد الطعام فى المغارة، بدأتَ الإعانات تصل لهم عن طريق مساعدة من أهل الحى وقليل من الحكومة وقد قام بتوصيلها المفاوض الشيخ يونس.

ومثل كل شيء فى الحياة "أوله صعب وبعد ذلك بالتعود يصبح الأمر طبيعياً" فهذا بالضبط ما حدث معهم.

فى الأيام الأولى المظلمة كانوا ينتظرون بزوغ الفجر بفارغ الصبر ليتسرب إليهم بعض الضوء من النوافذ المحطمة ليعيشوا عليه. ومن خلال النوافذ المحطمة أيضا كان يقذف لهم الخبز وعلب الفول أما باقى الطعام الجيد فيذهب لشنيدَر ورجاله. عندما حاول

الشاب الخائب أن يظهر على المسرح مرة أخرى، زجره النـــاس ونهروه وطلبوا منه الهبوط، فهبط وهو يحمل خيبته على عاتقه مرة أخرى.

أخينا رقم (٢) أصيب بالاكتئاب فاتخذ لنفســـه ركنـــاً بعيـــداً وجلس فى صمت وذهول، استسلم للأمر الواقـــع، وأدرك أن لا فائدة من سلاحه الذى يحمل عدة طلقات أمام رشاشات رجـــال شنيدَر. وكيف يصل للأوباش الحقيقيين ويصوب طلقاته نحـــوهم؟ قاَل لنفسه:

– كان لابد لى ألا ألهث بحلمى الكبير خلف امرأة عاهرة.

أخذ يفكر فى أمره وأمر أمه المسكينة "من يعطيهـــا الـــدواء فى الموعد المحدد؟ من يطعمها الآن؟ من يرعى شئونها؟ إذا عطف عليها الجيران اليوم، فبالطبع لن يتحملوها غداً. اللعنة عليك يا شـــنيدَر، أنت تفكر فى نفسك فقط ولا يهمك الآخرون؟ وها أنـــا فَقَـــدتُ حلمى الكبير والأخير، وأنتظر الموت المحقق على يد جاهل مثلـــك يتحكم فى حياتى فى لحظة غبتُ فيها عن الوعي".

جاءه صوت يهمس فىَّ أذَنه لشبح يجلس بجواره لم يستطع تحديد ملامحه بسبب الظلام الدامس قال:

– ماذا بك يا أخي؟ لا تتحدث.. ودائما تبدو ذَاهلاً.

– يا عزيزى نحن نعيش فى الظلام ونأكل أكـــل الحمـــير.. وهـــم بالخارج يتمتعون بما تشتهى الأنفس وتريد منى ألا أكـــون ذَاهـــلاً وصامتاً!

– تأكد يا أخى أن الصبر مفتاح الفرج.. يوماً ما سوف تشـــرق الشمس علينا من جديد.

- أى شمس تشرق علينا وشنيدَر يتحكم فينا ويتخــذنا رهــائن لجرائمه. كيف نَقْبَلُ لأنفسنا هَذا الوضع المهين؟ نقبله لأننا أتينا هنا بمحض إرادتنا. كان يجب علينا أن نعرف تاريخ الرجل جيدا قبـــل أن نأتى إليه.. أنا حضرت من أجل شربات، وأنت لماذا حضـــرت وماذا كنت تريد من هذه الحفل؟

- لقد أجبرت على الحضور هنا.. كنا مجموعة نســير فى حالنــا ونتحدث عن الفن والأدب والشعر والسياسة.. ولحق بنا رجـــال شنيدَر وعرضوا علينا أن نحضر إلى هنا، رفضنا، فأشـــهروا علينـــا السَيوف.

- وماذا فعلتم؟

- ها.. ها.. على الفور أخرجت من جيبى قلم حبر وقلـــت لهـــم "هذا القلم أقوى من سيوفكم وأقوى من القنابل".. فسخروا مني، وأخذونا جميعا إلى هنا.

- ماذا تفعل يا رجل؟

- أنا قاصّ.. أكتب الروايات.. أجمل الروايات.. أنا بارع فى صنع الشخصيات والأحداث.. الأحداث حـــولى مملـــة وســـخيفة ولا تعجبني.. فأصنع لنفسى أحداثاً سعيدة، أو تعيسة مش مهم.. المهم أننى أغير واقعى وأزرع الأمل فى قلوب الناس.

- لا يوجد أقوى منكم يا رواة.. فى قصصكم تقتلون من تشاءون وتخلقون من تشاءون وتفعلون ما تشاءون ودائما النساء جمـــيلات فى رواياتكم.

- أجمل شيء فى الإبداع هو خلق الشخصـــية.. الكاتـــب يخلـــق الشخصية كما يشاء، شريرة أو مليئة بالخير أو مزيجاً منهما، المهم أنها عندما تخرج للنور وللناس تفقد صـــلتها بخالقهـــا.. وتصـــبح

مستقلة ويتعامل الناس معها حسب هواهم، يحبونها، أو يكرهونها، أو يتأثرون بها. وخالق الشخصية ليس له حق التدخل، فقط من حقه أن يفتخر أنها من صنعه، خالق الشخصية يفقد السيطرة عليها بمجرد خروجها للنور ولا يجد سوى الفخر بإبداعها.. مثل المولود الجديد يخضع لتصرف أمه وعندما ينمو ويكبر تفقد الأم السيطرة عليه.

– جميعا سوف نموت فى جلدنا هنا.. أمّا أنت فمِن الموت تبدع.. والإبداع سوف يحميك من الموت.

– يا عزيزى أنت تضحك على نفسك، ليس للإبداع مكان فى الظلام.. ماذا أحضرك إلى هنا؟

– كان لابد لى ألا ألهث بحلمى الكبير خلف امرأة عاهرة.

فردد خلفه مقولته وكأن الوحى جاءه على غفلة.. وقال:

– ما أجمل هذه المقولة "كان لابد لى ألا ألهث بحلمى الكبير خلف امرأة عاهرة". هذا جميل.. هذا جميل.

– قلت لك.. ها هو الإبداع يأتى لك فى الظلام.

فصعد الراوى على المسرح وأمسك بالميكروفون وقال:

– يا جماعة.. سوف أقص عليكم قصة جميلة: أنتم تعيشون على أمل واحد، هو أن تخرجوا إلى النور، ولكن الحقيقة أننا سوف نموت هنا.. بل الأحق أننا فعلا نموت كل دقيقة من الخوف ومن الطعام الفاسد ومن الأمراض ومن التلوث. ونخشى من تحطيم الأسوار لأننا نخشى الموت الذى ينتظرنا فى الخارج.

إذا كان الموت يتربص بنا من الداخل والخارج ومن كل اتجاه فلماذا نخشى إذن؟!

قاطعته الجماهير العديدة وتعالت الأصوات والصفير مطالبين الراوى بالصمت والهبوط من فوق المسرح، وعودة الشاب الخائب للغناء والرقص، فنزل الراوى فى كبرياء شديد وسمعهم يقولون وهو يسير بينهم محبطا:

– يكفينا المأساة التى نعيشها، نريد شيئاً يضحكنا.

– إن كنت لا تخشى الموت فلماذا لا تموت أنت أولا.

– يبدو أنك زهقت من أكل الفول وترغب أن تعمل معهم جاسوساً ليرسلوا لك الكباب.

– نعم يبدو أنه جاسوس ويريد أن يبلغ شنيدَر بالمتمردين.

– أطربنا يا عزيزي.. أطربنا وهُزّ لنا مؤخَرتك لنضحك وكفانا نكد.

أمسك الشاب الخائب بالميكرفون على خشبة المسرح مرة ثانية.. وقال فى صوت خفيض:

– يا جماعة، بالطبع أنتم تعرفون أن الفنان الحقيقى ترفضه الناس فى الأول ويعانى ويقاسي.. وأنا سعيد أنكم عرفتم الآن قيمتى الحقيقية وطلبتمونى للغناء، وكل ما أطلبه منكم أن تغنوا معى الليلة لأنني.. (وأخذ يسعل باصطناع شديد) صوتى تعبان شوية.. ماشي.. يالله

وأخذ يغنى أغنية هابطة، وعلى الفور توالى التصفيق له بحرارة شديدة. وعندما وصل الراوى نحو أخينا.. ضحك ضحكة ساخرة وقال له:

– قلت لك.. كان لابد لى ألا ألهث بحلمى الكبير خلف امرأة عاهرة. فرد الراوى بأسى شديد:

- الغروب.. منذ أن أتيت إلى هنا وأنا أكره ساعة الغــروب لأنى أكره الظلام.. والآن يا صديق الظلام.. فى تلك اللحظة فقط أتمنى بالفعل ساعة الغروب.

(١٠)

مرت الأيام بطيئة ومملة وكئيبة، وبدا الجميع وكــأن الظــلام أصبح جزءاً لا يتجزأ منهم، بل حقيقة الأمر أنهم بعد أن فقــدوا الأمل فى التحرر القريب، تعودوا على العيش فى الظلام. والحــق أنهم أصبحوا ينتظرون بفارغ الصبر غروب الشمس، لأنهم بدءوا فى عمل كل ما هو خطأ أو محرم أو كســر للعــادات والتقاليــد والشذوذ والرشوة مع حرسهم بالخارج فانتشر الفسّاد فى الظلام وتلذذوا مع أنفسهم، وكل ما كان فى الماضى يقــع تحــت بنــد المحرمات والخطأ والكوارث أصبح طبيعياً وعادياً فى الظلام، وحتى لا يواجهوا أنفسهم عند بزوغ الصباح أصبحوا ينامون ســاعات النهار التى يتسرب فيها ضوء قليل إلى المغارة، والبعض منهم اتخذ الصباح للعب الطاولة والورق وبعضهم لجأ إلى الصــلاة وقــراءة القرآن ليفك كربهم، ومنهم من تطرف.

وعندما بدءوا يملون من أكل صنف واحد من الطعام اخترعــوا لأنفسهم طريقة جديدة للتغيير فقاموا بتصــنيف الفــول (فــول بالزيت، بالسمن، بالبيض إلخ) إلى أكثر مــن عشــرين صــنفاً، وهكذا بدلاً من أن يحاولوا تحطيم الحوائط والأبواب ارتضوا بمــا قدم لهم شنيدَر من فضلات الطعام.

بالطبع فَشلوا فى جميع مجالات الحياة فشلاً ذريعا، والسبب يعود إلى الظلام، حتى المواهب الفذة ضــاعت فى الظــلام، وتســاءل

الراوي: "كيف للمواهب أن تنمو وهى تحيا فى الظلام؟ لابد للمواهب أن تعيش فى النور". ومع مرور الوقت بدأت الأمراض تتسرب إلى المكان ببشاعة، فزادوا من النكات الرخيصة للترفيه. والأغرب أنهم لجئوا إلى بعض الممثلين البهلوانات الذين لا يعرفون سوى تمثيل شخصياتهم الحقيقية على مسرح الحياة. الشاب الخائب الذى قذفوا عليه الطماطم والبيض فى بداية الحفل وسط الأضواء أصبح ملك الغناء فى الظلام، وتوالت الأصوات بعده، وتساءل الراوي: "كيف للمواهب الفذة أن تعيش فى الظلام؟".

عندما حضر الشيخ يونس هذا الصباح لتقديم المعاونة لشِنيدَر سأله:

– يا سيد شنيدَر (كان دائما يقول له ذلك) أنا أريد الاطمئنان أن هذه المعاونة (الطعام والأدوية) تصل للناس بالداخل.

– يا شيخ يونس لا تشك فى حبى لأهلى وأهل حارتي. أنا فقط أحارب الظلم.. ظلم الحكومة الفاشية التى تلعب لعبة تَفُوقُ قدرة أهل الحي.. أنا لا أقبل لهم الأذى.

– لماذا لا تُسلّم نفسك لهم؟ أعدك أن أقف بجوارك فى المحكمة.. أو هرب أنت ورجالك لحى آخر وتترك هؤلاء المساكين.

– المصيبة يا شيخ.. لو تركت هذا الموقف الذى أنا سيده الآن فلن ترحمنى الحكومة، وإذا هربت من الحكومة فلن أهرب من الرهائن.

– ماذا عن ابن الست الطاهرة.. أمه مريضة ولا يصح.

– لو تركته يعنى أن حياتى فى خطر.. عد لهم يا شيخ وشكرا.

– ربنا يهدى النفوس.

كان أخينا رقم (٢) يجلس مع صديق الظلام الجديد الـــراوي.. وقال له فى صوت خافت:

– تعرف أننا فشلنا فى جميع مجالات الحياة.. فى الكرة فى الفـــن فى الطب فى العلوم.. حتى فى ديننا مزقناه ورقعنـــاه لكـــى نرضـــى الأغراب عنه.

– هل رأيت من قبل أن دولة تعيش فى الظـــلام ثم تـــنجح فى أى مجال؟ وإذا كان بينهم فذ فلابدّ من اكتشافه من قِبَلِ دولةٍ أخـــرى تعيش فى النور.

سمعا صوت الشاب الخائب بالميكرفون يغني، فقال:

– ها هو المهرج التافه قد ظهر على المسرح.. ليغنى ويهز مؤخرته، ويلقى علينا بعض النكات السخيفة الرخيصة ليضحك الناس.

– الظلام يا عزيزى.. الظلام.

مرت عدة أيام وفاض بأخينا الكيل فانتابته حالة مـــن حـــالات التمرد على الوضع وعلى كل شىء، لقد أدرك أن حلـــم حياتـــه الذى انتظره فترة طويلة على وشك الضياع فأصـــابه الغضـــب الشديد، وبدأ يفقد السيطرة على نفسه، فذهب نحو الباب بكـــل غضب ودفع كثيراً من الناس كانوا ملتفين حوله وأخذ يطرق على الباب بكل عنف وهو يقول فى صوت عالٍ دَوَّى صداه فى المكان كله.

– شنيدَر.. شنيدَر هل تسمعني؟ كفاية.. كفاية.. حرام عليك أنـــا أريد أن أخرجَ من هنا هل تسمعني؟ أنا أتحدث إليك، أنا أتحـــدث إليك، هل تسمعني؟

ما فائدة أن تدخن سيجارة وتنفخ دخانها فى وجوهنا؟ هل تسمعني؟
أنا أتحدث إليك، رد عليّ.. أنا أكرهك.. صَوِّبْ رصاصك نحو صدرى، اظهر لىّ، عذبني.
افتحوا الأبواب.. افتحوا الأبواب.. شنيدَر، لقد سَلَبْتَنا كُلَّ شيء.. وفشلنا فى كل شيء.. ولم نفلحَ إلا فى الحديث عن الماضى قبل دخول المغارة.. حتى الحديث عن الماضى أصبح ذكرى لا نتذكر تفاصيلها فى الظلام.
افتحوا الأبواب.. افتحوا الأبواب.. أنا أتحدث إليكم يا غجر.
لقد فشلنا فى كل شيء وأفلحنا فى فلسفة الكلام.. وأصبحنا لا نعرف الحلال من الحرام.. ولا حديث لنا سوى الحلال والحرام.
سقط على الأرض غارقا فى دموعه بعد أن فقد قوته وأخذ يخبط بطرقات خفيفة على الباب وكانت كل ما يملك من قوة وأخذ يقول ويكرر مستطرداً:
كان لابد لى ألا ألهث بحلمى الكبير خلف امرأة عاهرة.
هل تسمعني؟ أنا أتحدث إليك.. أنا أتحدث إليك.. هل تسمعني؟ أنا أتحدث إليك.

لخبطت الموائد فأكلوا أكل الحمير وأكلت الحمير أكلهم.

(١)

استيقظ أخينا رقم (١) على صوت طرقات قوية على البـــاب، فنادى على خادمه بصوت عال وعصبية شديدة:

– بوب.. يا بوب.. يا أسود الكلب.. افتح الباب.

أدرك أخينا أن لا فائدة من النداء على خادمه ولا من الطـــارق أن ييأس بطرقاته على الباب، فنهض من جوارها وهى ممددة على الفراش عارية تماما دون غطاء لقسوة حرارة الطقـــس، ارتـــدى الروب دى شامبر غير مقتنع أن يتركها، رغـــم أنهـــا أهلكتـــه فى اليومين الفائتين فقال وهو يوقظها:

– شربات.. ارتدى ملابسك وجهزى نفسك للرحيل.

قالت وهى مازالت مستسلمة لرغبة النوم.

– مَنْ ذا الذى حضر إليك فى هذه الساعة المبكرة؟

– انهضى يا فتاة، نحن الآن فى الظهيرة.. ولا أدرى أيـــن ذهـــب الزفت بوب.

ذهب نحو الباب وهو يتكئ على عصا أثرية عتيقة يســـتخدمها كعكازة، وعندما فتح الباب فوجئ بشخص أمامه يرتـــدى بذلـــة حمراء وقميصاً أحمر وكرافتة حمراء ونظارته السوداء تـــتلاءم مـــع وجهه الأبيض المائل إلى الاحمرار. أخذ يدعك عينيه للتأكـــد أنـــه ليس بحالم، فدخل الشخص الذى بدا وكأنه يعـــرف طريقـــه إلى المنـــزل وهو يقول:

– أنا عارف أن "بوب" مش هنا، لذلك حَضَرْتُ بنفســـي.. هـــل عندك أحد؟

– نعم.. شربات ترقد فى غرفة نومي.

- اذهب وأخرجها من هنا على الفور.. أمامى عشر دقائق فقط.. وكل دقيقة محسوبة من وقتك.. سوف أنتظرك بالصالون.

انصرف الأخير بسرعة من أمامه دون أن يستخدم العكازة، وذهب إلى غرفة النوم وقال لها فى ارتباك شديد:

- ارتدى ملابسك بسرعة يا شربات.

- ماذا حدث؟

- سوف أفهمك فيما بعد.. الآن يجب أن ترحلى (وأخذ يساعدها فى ارتداء ملابسها) اتصلى بى بعد الظهر. يجب أن تعرفى أين يخبئ شنيدَر النقود وتستولى عليها فى أسرع وقت.

- طيب.. طيب.

ارتدت ملابسها وهى تنظر إليه فى شهوة زائفة.. ثم تساءلت:

- ماذا بك؟ وكيف لك ألا تستخدم العكازة؟ هل شفيت؟

ارتبك وقال فى خبث شديد:

- أحيانا لا أستخدمها فى منزلى.. لا وقت للتساؤل يا شربات.

أخرجها بسرعة من الباب وأعطته قبلة على فمه وتمنت أن تطول ولكنه قاطعها قائلا:

- ارحلى يا شربات لا وقت يا حبيبتى.. اتصلى بى فيما بعد.

- ماذا أقول لشنيدَر؟

- قولى له أى شَىء.. قولى إن فرج خطفك، ارحلى يا شربات لا وقت عندي.

- مع السلامة يا حبيبى.

رحلت.. فتنفس الصعداء وأغلق الباب وعاد إلى الصالون وتساءل مع الرجل فى عجب:

- كنت أنتظر ظرفاً أحمر.. وليس الرجل الأحمر.

– لقد حضرت بنفسي لتبليغك موعد الاختبار، وأيضا للتأكد من أنك بصحة جيدة.. احْكِ لى عن العكازة.
– أستخدمها فقط للحيلةَ على أهل الحي.. ولكنها كعصا موسى السحرية التى تخرجنى من المأزق. وهو ينظر ويقلب فى العصا مستطرداً: وأخيرا أنا أعشق كل ما هو أثرى.. وهذه عصا لا يعرف قيمتها أهل الحي.
– إذاً هذا لن يؤثر على المهمة.
– إطلاقاً يا سيدي.. انظر.. (أخذ يفرد رجله ثم نهض من على كرسيه وأخذ يتشقلب أمامه ويظهر له أنه قادر على عمل أشياء كثيرة).
– عظيم.. الاختبار الأخير يوم واحد أكتوبر فى تمام الثانية ظهرا.. وأنت رقم واحد.
– أستطيع أن أحصل على المكافأة الآن.. أنا فى حاجة إلى المال.
– أمتأكد أنت من اجتياز الاختبار؟
– مثلما أنا متأكد من وجودك معى الآن.
– لو فعلت ذلك يعنى أننى أفضلك عن الأخوين الآخرين، وهذا ليس فى عرفنا.. رغم أننى أعلم أنك لست فى حاجة للمال.. وهما أحوج منك ورغم ذلك لم يطلبا.. بَطِّلْ حركات عصا موسى.
– طيب.. ممكن أعرف نوع المهمة؟
– دائما تحب أن تكون أنت المفضل.. ماذا تفيدك المعرفة؟
– أن أحترس.
– أنت محظوظ، سوف أقول لك لأن الوقت مازال يسمح. سوف تُرْسَلُون فى مهمة سبقكم فيها آخرون ونجحوا ببراعة والآن جاء دوركم أنتم لتقوموا بهذه المهمة لإنقاذ البشرية من الدمار.. المهمة

هي إنقاذ رجل عجوز من يد عصابة دولية يتزعمها رجل أمريكى يدعى لوجيا.

– من هو هذا الرجل؟

– رجل يعرفه كثير من الناس.. عنده من العلم ما لا يعلمه إلا الله.. ولديه القدرة على جذب الناس نحوه كالمغناطيس الشديد المفعول. لوجيا يستفيد من علمه.. ويخشى أن يتركه.. لا يستطيع الاستغناء عنه رغم أنه يتمنى موته لينسب لنفسه كل أفكاره.. ونحن نريد هذا الرجل، وبوجوده معنا سوف ينتشر السلام على الأرض.

– ونسبة نجاح المهمة؟

– نسبة النجاح فيها ضيئلة جدا.. وقد تكون انتحارية.

– ماذا تعني؟! لا يوجد فيها أى نسبة نجاح؟

– هذا يتوقف على براعتكم فى تنفيذ الخطة مع الآخَرَيْن.. أعنى بالتنسيق مع الآخريْن.. لأنكم سوف تكونون جميعا فى دائرة واحدة ومن يتطرف منكم فسوف يوقع بالآخر. أحب أن أعرفك أننى حضرت هنا بنفسى لأبلغك الرسالة لعدة أسباب: أولها أنك لا تصدق إلا بالدليل وتاريخك مشهود له بذلك. ثانيا أنت معروف بمغامراتك مثل الجنس والخمر ومشتهيات الحياة وحب السيطرة وأنا لا أريد أن أرسل من يحميك ويراقبك فى كل خطوة.. الآن لابد لى من الرحيل.

أخينا رقم (١) فى أواخر العقد الرابع من عمره، أعنى أنه أكبرهم وأكثرهم دهاء وأبرعهم فى استخدام السلاح ولا يحتاج للتمرن على السلاح، وسيم بلا أدنى شك. يقطن فى الثلث الأول من الحى فى البيت العتيق (كما يطلقون عليه) وعلى مقربة من باب

أثرى عتيق ومغارة، شقته فى الدور الأخير رغم صغر حجمها ولكنها تتميز بموقع استراتيجى غير عادى حيث المساحة الواسعة للسطوح الذى يستطيع منه أن يكشف الحى كله.. ولديه منظار خاص لهذه المهمة.

كانت أمه امرأة لعوباً (تزوجت عدة مرات) صارخة الجمال وراقصة بارعة فى الأفراح والموالد، عائلتها من الغجر المتنقلين من مكان لآخر، ولكى تضمن لنفسها الحماية وهى تترحل بين المحافظات لإحياء الأفراح والموالد تزوجت وهى فى الثامنة عشرة من رجل أثيوبى يعمل طبّالاً فى فرقتها، بعد عامين أنجبت منه أيوب (أطلق عليه الزوج فيما بعد بوب) وعندما طلب منها أن تتوقف عن الرقص وتهتم بالطفل، رفضت، وطلبت منه الطلاق معربة "أن الرقص عندها كالماء والهواء" فوافق على الطلاق شرط أن يأخذ الطفل فى حضانته. فوجدتها فرصة طيبة.. لقد كانت تشعر بجمالها الفائق وتبحث بين الرجال عن فرصة أفضل، وتحلم بالشهرة والثراء، وأيوب سوف يعوق هذه المسيرة، فوافقت، وسعد الزوج بقرارها، وبدوره فعل ما لا يخطر لها على بال، أخذ الطفل وعاد إلى موطنه الأصلى أثيوبيا دون إذنها ولم تر الطفل منذ ذلك الحين.

فى حقيقة الأمر، كانت لا تبالى كثيرا بقدر ما كانت تتظاهر أمام الناس (عندما تواجه مشاكل ومتاعب فى عملها وحياتها) أنها امرأة مسكينة وطليقها قاسى القلب خطف ابنها وقطعة من قلبها ولا تعلم عنه شيئا. وكانت بالفعل بارعة فى رسم الحزن وماهرة فى إسقاط الدموع والبكاء بحرقة وتجيد فن الصراخ والتعبير عن نفسها بأنها مضطهدة من الجميع فتنال عطف من تحتاج إليهم.

عندما تزوجت من أبي أخينا سكنا فى البيت العتيق، فى البداية أظهرا لأهل المنزل والحى أنهما غلابة من الغجر قادمان من الصحراء، ويبحثان عن الرزق، فعطف أهل المنزل عليهما، ولم يمر وقت طويل حتى ظهرت حقيقتهما وفاحت رائحتهما، الأم تفتح منزلها وتستغل هذه القطعة الفسّيحة من السطوح للحفلات الموسيقية ودعوة رجال ونساءِ للخمر والرقص وأعمال أخرى بحجة أنها فنانة وتعمل بروفات، والأب كان يعمل فى التجارة والربا.

فبدأت مضايقات أهل المنزل لهما وسألهما صاحب المنزل الرحيل، فرفضا، وعندما أنجبا أخينا، هددهما أهل المنزل وصاحبه أن يرحلا وإلا تعرَّضَ طفلهما للأذى، فخشيت الأم أن تفقد طفلها الثانى مثلما فقدت الأول، فذهبت به وأعطته لامرأة ثرية تعيش فى جاردن سيتى فى ذلك الوقت، وبقيت هى وزوجها يحاربان أهل المنزل وصاحبه، وأخذت تذهب يومياً إلى جاردن سيتى لترضع الطفل، وهناك تعرفت على منتج سينمائي، أحبها، ووعدها بالزواج وأن يجعل منها راقصة وممثلة مشهورة فى الشرق الأوسط. فشعرت أن الحياة بدأت تبتسم لها، وجمالها الذى كانت تعتمد عليه أوشك أن يحقق لها أحلامها الكبيرة التى طال انتظارها، فرحلت معه ونسيت الابن والأب معا.

ومرت السنوات سريعة ولم يُسْمَعْ عنها فى أخبار النجوم ولا حتى فى أخبار الحوداث. اختفت، وكأنها لم تكن موجودة فى الأصل، وبقى الأب فى الحي.

وتربى أخينا فى جاردن سيتى مع الأثرياء، أخينا ألثغ (يجعل الراء غيناً وأحيانا لاماً) عصبى المزاج ومدلل وبارع فى لعبة الشطرنج

ولكنه لم ينَلْ فى حياته جائزة، يملك الكثير من المال ولكنه مشهور ببخله الشديد، وحريص ويجيد فن التدبير، وعندما شب سافر وحده إلى ألمانيا فى زيارة سياحية، وعندما أعجبه الحال قرر أن يبقى وألا يعود للوطن، وعمل كمصمم أزياء (بجانب بعض الأعمال المريبة) وسرعان ما كوَّنَ ثروة لا بأس بها. وعندما أدركت الحكومة خطورته وكشفت ألاعيبه دون الإمساك بدليل واضح، فقط اكتشفوا أنه لا يحمل إقامة، اكتفوا بطرده ليتخلصوا منه، فغضب غضباً شديداً، وحمل ضغينة كبرى لهذا البلد وعاد إلى الوطن، فعلم أن أباه مريض ومازال يسكن الحى العتيق، فعاد إليه ليرعى شئونه.

أخينا من هواة جمع التحف الأثرية ولديه عكازة أثرية يحتفظ بها كروحه ولا يفارقها إلا بالموت.

(٢)

عندما عاد بوب من الخارج سأله أخينا بعصبية شديدة وصوت عال:

– أين كنت يا زفت؟

– متى تكف عن عصبيتك؟ أنا لست خادمك.. أنا أخوك.

– من اليوم فقط أنت خادمي.. لقد ضحكت لى الدنيا.. ومن اليوم لا تناد علىَّ سوى "سيدى".

– أنت أخي.. ابن أمي، فكيف لى أن أناديك بسيدى!

– أنت أسود وأنا أبيض.. فكيف نكون أخوين؟

– وما ذنبى إذا كانت أمنا امرأة عاهرة تحب الرجال من كل لون!

– لا تَقُلْ عنها عاهرة.. اذهب وجَهِّزْ لنا الفطور.

– أنت لم تترك لى أى أموال فكيف لى أن أجهز لـــك الفطـــور. حضرتك كنت مشغولاً مع هذه العاهرة الصغيرة.. الـــتى ســـوف تقضى عليك.
– لا تتدخل فى حياتى أيها الخادم الأحمق.. اذهـــب وأحضـــر لى الفطور.
– لا يوجد سوى الفول، وأنت تعتقد أنه أكل الحمير [وبسخرية شديدة] أنت تعتقد فى نفسك أنك أمير أو ملك ولا يوجد علـــى الأرض سواك.
– من اليوم سوف تمطر السماء علينا أموالاً.
– علينا!! السماء تمطر عليك أنت فقط.. وما الفائدة وأنـــت لا تنفق هذه الأموال.
– سوف أشترى المنـــزل كله.
– أنت تحلم.. الحارة كلها تكرهنا وأنت مازالت تعتقد أن صاحب المنـــزل سوف يبيعه لك.. هو يريد أن يطردنا من الشقة بالقانون الجديد.. ولو أتيحت له الفرصة لقتلنا فى ميدان عام.
– هذه شقة أمنا.. ولا أحد يستطيع أن يأخـــذها منـــا، ســـوف نحاربهم.
– منذ أتينا إلى هنا ونحن نحاربهم. الحى كلـــه يكرهـــك لســـوء سلوكك.. تشرب الخمر وتمارس الرذيلة ولا تمانع الربا، وتمـــارس الجنس مع أجمل فتاة فى الحي. وتحب الأفلام الأمريكية.. لابد وأن ننتبه، المتطرفون زاد عددهم فى المنـــزل.
– وماذا عنهم؟ هم أيضا يمارسون الرذيلة ولكن فى السر.. ويحبون الأفلام الأمريكية أكثر مني.

بوب فى أوائل العقد الخامس من عمره، قصير القامــة، أســود البشرة وله وجه طفولى مليح ومستدير مع شــعر قصــير أكــرد وابتسامة ساخرة، أحيانا ما تلصق بحديثه، ودائماً ما يضع يــده فى جيوبه ويشعر بالبرد حتى فى أوقات الصيف. يعشق شرب الشاى (يشرب حوالى عشرين كوباً يوميا) ويدخن فقط عنــدما يعطيــه شخصٌ ما سيجارة، ويدخنها بمزاج خاص (ربما لأنها مجانية) ومتعة تبدو وكأنها تفوق كل المتع عنده، بوب لم يشتر علبة ســجائر فى حياته.

توفى أبوه إثر مرض من هذه الأمراض الــتى تصــيب القــارة الإفريقية (المجاعة)، وقبل رحيله وصاه أن يذهب إلى مصر ويبحث عن أمه ويعيش معها، فحضر إلى مصر ليس بناءً على وصية أبيــه فقط، ولكن خوفا من إصابته بمرض مماثل وبحثاً عن حياة أفضــل. وما إن وصل إلى مصر أعجبه الحال وحــاول الحصــول علــى الجنسية، ولكن باءت المحاولة بالفشل بسبب أبيه الأثيوبى، فحصل على اللجوء السياسى للبقاء بالبلد وأصبح له مرتب ثابــت مــن الأمم المتحدة.

كان أخينا فى ذلك الوقت يرعى أباه المريض ويعانى كره أهــل المنــزل لهما، وعندما التقى بأخيه بوب، على الفور أدرك أن بوب أحلامه بسيطة وقد تكون معدومة، كل ما يريده من الحياة حجرة للمبيت وطعام وأكواب الشاى، احتضنه، وكلفه بمهمــة رعايــة وتمريض أبيه مقابل السكن والطعام وقليل من المال، فوافق بــوب واعتبرها فرصة طيبة، بينما كان عقل أخينا مشغولاً بــالهجرة إلى أمريكا.

لم تَمْضِ شهور قليلة وتوفى الأب، وقامت على إثرهـــا حـــرب طاحنة بين الأخويْن وصاحب المنـــزل الذى يريد طردهمـــا (بـــل المنـــزل كله كان يكره وجودهما)، وأهل الحى خشوا أن ينشروا الفسّاد (خصوصا أن أخينا كان مشهوراً بغرامياته وبشرب الخمر وأَعمال أخرى غامضة) فى الحي.

طلب الأخوان من الحكومة ومن بعض المعارف من حى جاردن سيتى (ينتشر أفرادها فى مواقع هامة فى وزارة الداخلية) المساعدة، وبفضل هذه المساعدات الخارجية انتصرا الأخوان وأظهرا شجاعة لا مثيل لها، وسكن بوب فى الشقة رغم أنف الجميع.

أقام أخينا معه لفترة قليلة ثم قام بالاتفاق مع رجال البوليس، أن يعمل بوب مرشداً سرياً على أشقياء أهل الحى مقابل أن يقومـــوا بحمايته، وجدها بوب فرصة طيبة للانتقام من أهل الحـــى (الـــذين عانى معهم فى الفترة الأخيرة منذ أن أتى إلى الحي) فوافـــق علـــى الفور.

هاجر أخينا إلى أمريكا ولكى يضمن بقاءه فى الشـــقة وعـــدم تركها نتيجة مضايقة أهل الحى أخذ يرسل له (رغم بخله الشديد) مرتباً شهرياً يساعده على العيش، فتمسَّك بوب بالشقة، بل أصبح يعلن بالفم المليان أنها شقة أمه. وأخذ يحاربهم ليس من أجل الشقة أو أمه أو أخينا بل من أجل المال الذى ظن أنه سوف يحميه مـــن مرض وموت أبيه.

بوب لديه قدرة غير عادية على جذب الناس إليه، ويبدو أنـــه ورث عن أمه (التى لم يعاشرها) رسم الحزن والتعبير عـــن نفســـه وقت الوقوع فى مأزق بالتمثيل الجيد والبكاء بحرقة والتظاهر بأنه مظلوم وغلبان. وأصبح لديه أصدقاء كثيرون من أهل الحى ولكن

الحقيقة (غير المعلنة) أن الجميع كان يصاحبه خوفا منه واتقاءً لشره وبداخلهم يتمنون موته، كان يعلم ذلك جيدا فتلذذ بعمله الجديد وهو التجسس عليهم، بل زاده بالمنغصات والفتن بين أهل الحـــى لكى يصرفوا النظر عنه، وهو الذى أوقع بفرج الطويل.

لم تستغرق رحلة أخينا الفاشلة إلى أمريكا عدة سنوات تـــزوج خلالها وأنجب طفلة جميلة، وانفصل عن زوجته، فعاد إلى الـــوطن مرة أخرى بخيبة جديدة تضاف إلى أخواتها السابقات، بعد حـــرب الخليج الأولى.

لم يستطع أن يعود لجاردن سيتى وهو يحمل خيبته علـــى عاتقـــه فسكن مع بوب فى الشقة، وكان ما يؤرقهمـــا أن هنـــاك بعـــض الأطفال يلعبون على الأسطح القريبة منهما ويقـــذفون عليهمـــا الحجارة ويحطمون النوافذ، أخينا عصبى المزاج وســـليط اللســـان وسريع الغضب، بينما كان بوب ليناً وصبوراً وحليماً، ولذا أكمل كل منهما الآخر فى مواجهة الشدائد. أخينا رقم (١) لا يســـتغنى عنه، رغم أنه يتظاهر بمعاملته القاسية ويأتمنه على معظم أســـراره عدا أهم الأسرار، أين يخبئ أمواله.

العلاقة بين أخينا وبوب هى علاقة مرتبكة وغير واضحة بصرف النظر عن أنهما من أم واحدة، ما يربط بينهما مصلحة مشـــتركة أكثر منها أخوة وملة واحدة، كراهية كل منهما للآخر تختفى أمام العداء المزمن من أهل المنـــزل وصاحبه، بل تجعلهما أكثر تماسكا وقوة معا. بوب يكره أخينا لأنه مغرور ودائماً ما يُنْـــزل من شأنه (ليس أمام الناس) ولا يوفر له ما يحتاج إليه رغم أنه يَملك كـــثيراً من المال.

وأخينا يعتبر بوب رجلاً إفريقيّاً بعيداً كل البعد عـــن الحضـــارة والتمدن ويتصرف تصرفات خادم إفريقى مطيع أكثر منه أخاً من أم واحدة، هذا التصرف غالباً لا يعى به أخينا ولكنه يترســـب فى أعماق بوب ولا يقترب منه النسيان.

سأله بوب: أنا ذاهب لعمل شاي.. أتريد شاياً؟

– لا.. أريد فطوراً يا حيوان.

– انتظر حتى أشرب شايا وأسخن لك الفول.

– أنا لا آكل الفول وأنت تعرف ذلك.

– يوما ما سوف تزول هذه النعمة من وجهك كما يقــول أهــل الحي. إذن أعطنى بعض المال لكى أشترى لك ما تحب.

– أنت مثل أهل الحي، جربوع، ولا تستحق سوى شِنِيدَر.. رجل جاهل يتحكم فى عيشتك.

– يا مصبر الوحش على الجحش.

– ها أنا قد عرفت أين كنت.. عند صاحبك "صابر الفِسّ" هــذه مقولته.

فقال فى صوت خافت:

– ربنا يأخذك كى نستريح منك وأرِث أموالك.

– ماذا تقول؟

– لا شيء.. أنا أسعل.

(٣)

بعد ساعات معدودة كان الاثنان يجلسان (كالعادة) معاً علـــى سطح المنـــزل على كراسى مريحة يرتديان نظارتيهما الشمســـية ويراقبان الحى كله بمنظار صنع خصيصاً لهذا الغرض، ويكشف من

مسافات بعيدة ويسهل التحكم فيه. دق جرس التليفون.. فرد بوب:

– آلو

– آلو.. نعم يا بوب.. أنا شربات. يضع يده على سماعة التليفون ويقول وهو يناوله السماعة:

– تعالَ يا سيدي.. كَلِّمْ حبيبة القلب.

– هى ليست حبيبة القلب يا مغفل. يأخذ منه السماعة ويتحدث إليها: آلو.. نعم يا شربات.

– نعم. شنيدَر فى طريقه الآن لفرج الطويل.. ماذا أفعل الآن يا حبيبي؟

– ماذا عن الأموال.. هل عرفت طريقها؟

– لا.. فقط علمت أنه خبأها داخل مقبرة.. لا أحد يعرف طريق المقبرة غيره.. ويقال إن من يدخلها تكون نهايته.

– لابد وأن تعرفى طريقها قبل أن يذهب لملاقاة فرج.

– لا تَخْشَ.. فرج لا يعرف شيئا عن المعركة وسوف يعود لى شنيدَر بالأموال.

– حبيبتى.. لكى نحيا حياة أفضل لابد من هذه الأموال.. سوف نحيا معاً فى أجمل المناطق.. بل نستطيع بهذه الأموال أن نجعل هذا الحى جنة.. أهل الحى لا يعرفون قيمته الأثرية.

كانت شربات هى الوحيدة من أهل الحى التى تقف بجوارهما وتدافع عنهما وتؤيدهما فى كل ما يفعلان وذلك لأنها كانت تشعر بكره أهل الحى لها، فاتحدت معهما وتحدَّت الجميع.

كانت تعانى من فقدان حنان الأب تاجر المخدرات الذى اعتقل وهى فى الخامسة من عمرها، ولم تمر بضع سنوات حتى لحقت به

الأم فى قضية مماثلة. فأخذها عمتها لتعيش معها بالوكالة حيث يسكن فقراء وجرابيع ومجرمو الحي. وأمام جامع البيومى كانت شربات تجلس كل صباح أمام قفص مرصوص عليه بعض الحلويات وعلب السجائر، وشعر الجميع بالشفقة على المسكينة الصغيرة، ولم يمر وقت طويل حتى اكتشفوا أن شربات تبيع المخدرات فى علب الكبريت، وزبائنها من مجرمى أحياء أخرى. فعرفت طريق المال السهل وهى فى سن صغير، وزبائنها من المجرمين والبلطجية كانوا يقفون لها سنداً قوياً، فشعرت بقوة غير عادية، وأغلب المجرمين تمنوا أن يقدموا للجميلة شربات خدمة وأيضا للمعلم الكبير أبيها، ربنا يفك سجنه.

عندما بدأت العمة تفتشها تفتيشاً ذاتياً - بحثاً عن الأموال التى تكسبها - أخذت تخفيها وعندما لاحقتها العمة فى كل مكان أخذت تنفق ما تكسب ببذخ شديد على نفسها وعلى بعض بنات الحى فى سنها قبل أن تعود لمنزل عمتها. فكسبت ود بنات الحى خصوصا بعد أن بدأ أهل الحى يُكنّون لها الكره لبجاحتها وجرأتها غير المعهودة وسلاطة لسان فتاة فى سنها، كانت تنفق الأموال ببذخ شديد وكأنها مصابة بسرطان مالى والعلاج الوحيد البتر.

أول مرة تقابلت فيها مع أخينا كانت منذ عامين، كان يجلس مع صديق له فى محل لبيع الملابس الحريمى، فدخلت إلى المحل تبحث عن بعض الملابس، لم يصدق أخينا ما رأت عيناه من جمال تختفى ملامحه تحت ملابس مهرولة وغير متناسقة، فنهض من مكانه وذهب إليها وأخذ يساعدها فى اختيار ملابس جديدة، وعندما أدرك أنها تملك بعض الأموال ازداد إعجابه بها، كانت تعرفه،

وتعرف تاريخ أسرته ومعجبة بأناقته، ودائماً ما كانت تراقبه وهو يرتدى أحدث الثياب.

طلبت منه فى دلال أن يقوم بتصميم ملابس جديدة لها وألا يبالى بالمال، فدعاها إلى منزله لتشاهد أحدث المجلات فى خطوط الموضة. فسعدت بذلك ووعدته بأن تزوره فى منزله فى أقرب وقت، فوعدها هو الآخر أن يقوم بالتفصيل (توقف عن هذه المهنة منذ زمن طويل) خصيصاً لها، فسعدت لذلك.

كان الاثنان بالطبع حالة فريدة ومتناقضة من الناحية المادية، هو بخيل جداً وهى تنفق ببذخ وغباء، فقام بمساعدتها بطريقة تفوق خيالها المحدود وأصبح الكثير من أهل الحى ينتظر أن يرى ما سوف ترتديه شربات من موضة جديدة كل يوم، ونالت إعجاب الكثير، وخصوصاً أن أكثر الملابس التى كان يقوم بتفصليها تبرز جمالها بشكل غير عادى، بجانب أن شربات تعشق المظاهر. ونشأت بينهما صداقة غير عادية وانفتح أمام عين أخينا عالم جديد، كنز لا يعرف قيمته أحد، وأخذ يلازمها ليحصل منها على كل ما تملك من مال وقوة وجمال. كان فارق السن بينهما يقلقه إلى حدّ ما، وسرعان ما ذهب القلق عندما وجدت شربات معه نفسها وصورة الأب المفقود وحنانه، بجانب كل التطلعات التى كانت تلازمها وتحلم بها، هو الوحيد من أهل الحى الذى يستطيع أن يحققها لها ويرقى بها من هذه الطبقة إلى طبقة أعلى، طبقة من هذه الطبقات التى جاء منها أو تراها فى أفلام هوليود. كانت تشعر أنها تستحق (بجمالها والمال المتوفر) أن تعيش حياة أفضل من هذه التى تعيشها، أخذ يشجعها ويطلب منها أن تجمع من المال أكثر وأكثر لتحقيق

الحلم، فجعلها تؤمن أن المال كل شىء فى الحيــاة وأنــه القــوة الوحيدة المسيطرة والمهيمنة على العالم.

كل شىء بينهما أصبح يسير بشكل طبيعى ولا يعكــر صــفوه سوى أنها عذراء، رغم أنها لم تمانع أبدا فى أن تفقد عذريتها معــه، ولكنه كان حريصاً كل الحرص على ألا يقع فى هذا المأزق فيجــبر على الزواج منها، لقد كان فقط يستغلها مادياً وجسدياً وبســبب صغر سنها لم تستوعب ذلك.

كانت تعيش أسعد لحظات حياتها معه، عقلها يستوعب وتتعلم كل كبيرة وصغيرة عن العالم التى تعيشه والعالم الخارجى الــذى لم تَرَهُ من قبل، فتفتحت أمامها طموحات وآمال وأحلام لا حصــر لها. وعندما كانا يرقدان على سريره ويقبلها ويداعبها تتحــرك فى جسدها النشوة والشهوة، وتتلذذ بقبلاته وتعشق رائحته الجميلة، هذا العطر الجميل الذى دائماً ما يتعطر به، كانت تغتاظ منه لأنــه لا يبوح لأحد بسره أو من أين يشتريه.

تعلمت منه أشياء كثيرة، ولكنها لم تفلح فى تعلــم اللباقــة فى الحديث، وظلت كما هى سليطة اللسان. أخذت تعرب له عــن كل آمالها وأحلامها، سرعان ما أدرك أخينا أنها تحب المال بجنــون وأيضا المظاهر الكاذبة ولو كلفها ذلك إنفاق كل ما تملك.

فى يوم من هذه الأيام المدونة فى ذاكرتها بحبر أسود لا يمحى ولا يقترب منه النسيان، ويعد أسوأ يوم فى حياتها، يــوم أن خطفهــا شنيدَر واغتصبها، كانت غير مُصَدِّقة ما حدث وظلت ذاهلة، هى الَتى تتمتع بقوة غير عادية فى الحى تقع فريسة ســهلة لشــنيدَر، وتتعرض للضرب والعنف فى منــزلها وتُختَطَف وتُغتَصَب. كانَــت تستطيع أن تصدق أى شىء فى الحياة عدا ذلك. أصابها مس مــن

الجنون، وامتلكها غضب وكره شديدان، وعندما تركها شِـــنيدَر تعود لمنـــزلها، لم تجد سوى منـــزل أخينا تلجأ إليه.

وعندما فتح لها الباب، عانقته وانصبت على ملابسه حنفية مـــن الدموع مفتوحة على آخرها، فأخذ يُهدِّئ من روعها، وذهب بهـــا إلى الحمام وخلع جميع ملابسها وهى تعانقه وتبكى بحرقة شـــديدة، ثم أجلسها فى البانيو وأخذ يغسل جسدها بنفســـه وهـــى تبكـــى وتصرخ بهَوَسٍ وبكلمات غير مفهومة قائلة:

– أريد أن أنتقم منه شر الانتقام.

– اهْدَئى يا حبيبتي.. سوف نقوم بعمل ذلك معا.

– هذا المجرم سرق منى أعز ما أملك.

أخذ يُهدّئ من روعها وهو يدعك جسدها بالصابون، فعانقته، عانقته بشدة فلوثت ملابسه بالصابون ودموعها تنـــزل بلا توقف. كانت هذه هى المرة الأولى التى رآها أخينا بكل هـــذا الضـــعف، فصرخت فى غضب وانهيار شديدين وصبت غضبها عليه قائلـــة: قلت لك أفقد عذريتى معك.. ها أنا قد فقدت أعز ما أملك مـــع مجرم قذر. سوف أقتله.. سوف أقتله.

– شربات.. اهدئى يا حبيبتي.. اهدئى سوف أجد لك مخرجا.

تكوَّمت فى ركن من أركان البانيو مبتعدة عنه ثم وضعت رأسها بين قدميها كالنعامة التى تُخبّئ رأسها فى الرمال، وبكت بصـــوت مكتوم، فاقترب منها ومَسَحَ على شعرها برفق شـــديد. وجـــدها فرصة طيبة قادمة على طبق من ذهب، وحَدَّثَ نفسه قائلا: "هـــا هو الأحمق ارتكب حماقة سوف يدفع الحى كلـــه ثمنـــها وســـوف ينشغل الحى بقضيته وينسى صاحب المنـــزل قضيتي".

فانتهز الفرصة وأخذ يرسم لها الخطط الشيطانية التى تفوق تصوُّر كل ما يمكن للمرء أن يتصور. واستطاع هو أن يكون فى الجانب الأمين من هذا المخطط.. فبدت هى وكأنها العقل المدبر لكل الأعمال الشيطانية.

وحقيقة الأمر أن شربات لم تكن على هذا القدر من الغباء كما تخيل أخينا، فبعد حالة الاغتصاب أصابها غضب وكره شديدان للعالم كله، وقالت لنفسها "إمّا أن تكون معى أو ضدّى" وبعد المقابلة مع شنيدَر عند باب الفتوح عادت لأخينا، وعندما فتح باب شقته قال:

– خير.. هل نسيت شيئا؟

– لا.. تقابلت مع شنيدَر وعرض على الزواج.. ما رأيك؟

وجلسا معاً على كراسى السطوح المريحة وقال لها:

– كده.. يعنى أنه يحبك.. عودى له بعد أسبوع أكون أنا أيضا تأكدت من مدى حبه لَك.. ومن هنا نبدأ خططنا.

– ماذا تعني؟ أعود لهذا الكلب الأجرد.. البربري!

– سوف تعودين للانتقام منه.. وليس لحبه.

وهنا اكتشفت أن أخينا لا يحبها، ومصلحته الشخصية تأتى فى المقدمة، ويستغلها، فقررت أن تستغله من كل النواحى وتكون هى المستفيدة، خصوصا بعد أن عَرَفَتْ أنه يملك ثروة لا بأس بها ولكنها لا تعرف أين يُخبّئها، أخذ هو يرسم لها الخطط لشنيدَر وهى ترسم فى عقلها خطة مشابهة له.

كان كل ما يهمه من هذا الأمر أن يستفيد من غباء شنيدَر، بل يُشجّعه ويُشْعِرُه ببطولة مزيفة لينشر الفسّاد فى الحى ويجعَل منه بطلاً وهمياً. فَخطط لهما عمليات السطوَ والمتاجرة فى المخدرات

والسرقة والبلطجة ونفذ شنيدَر كل ما طلبته شربات منه بثقة متناهية، وسرعان ما أدرك حبها الشديد للمال فقام بإخفاء كل الأموال التى كان يعود بها بعد كل مخطط والتى حصل عليها بفضل البلطجة والمخدرات والسرقة.

ومنذ ما يقرب من عام تقريبا وشربات تكن لهما كرهاً شديداً وتتنقل بينهما، آملَةً أن تعرف أين يُخبّئان أموالهما لتستولى عليها وتهرب.

(٤)

فى اليوم التالى بعد العصر كان أخينا يجلس على الكرسى المريح بالسطح وهو يراقب بمنظاره (كالعادة) الحى فدخل عليه بوب وجلس فسأله أخينا:

– أين كنت؟

– كنت عند صاحبك اللى بيحب نجفة.. وبلغته ما قلت لى "أن يحرق فرن المعلم كِشْك" وسألنى أن أساعده فى حرق الفرن.

– وبالطبع وافقت من أجل بعض النقود؟

– أنا قلت أسألك الأول.

أسقط المنظار عن عينيه، والتفت إليه وهو فى قمة غضبه وقال فى حدة:

– غبي.. غبي.. كم مرة قلت لك إننا لا ننفذ يا أحمق.. نحن نساعدهم بالأفكار فقط وهم يقومون بالتنفيذ.

– أنا أحتاج لأموال.. أحتاج لإجراء عملية البواسير وأنت لا تهتم إلا بنفسك وكأنى لست أخاك ابن أمك. أنا أساعدك وأفعل كل

شيء من أجلك وأضحي بنفسي، حتى أنت لا تتمتع أو تنفق من هذه الأموال.
– يا غبي، كم مرة قلت لك لو انكشفت فى تنفيذ عملية من هذه العمليات فسوف يتخذ صاحب المنزل هذا دليلاً واضحاً ضدنا على سوء سيرنا وسلوكنا فى المحاكم.. وتضع نفسك وتضعنى فى مآزق.
– أريد بعض النقود لإجراء عملية البواسير.
– قلت لك اذهب إلى المستشفى الحكومي. لماذا التبذير؟

أخينا رقم (١) يكره البنوك، يخشى أن يأتى حاكم مجنون ويؤمم أمواله ثم يعود من حيث كان صفراً على الشمال، لذلك جمع كل الأموال التى ورثها من جاردن سيتي، ومحصول محاكم ألمانيا (كما يطلق عليه) ودولارات أمريكا، واشترى بها ماساً، ووضعه فى العصا التى يستخدمها كعكازة، العصا التى لا يعرف قيمتها أحد سواه، الجميع يشهد له بأناقته وشكله الوسيم ولكنهم يتعجبون لتمسكه وإصراره على حمل هذه العصا القديمة، بالطبع هم لا يعرفون قيمتها الأثرية والمادية (الماس بداخلها) ولو عرفوا لتغيرت أشياء كثيرة، لديه إحساس يلازمه طوال الوقت بأن الجميع يضطهده ويكرهه ويطمع فى ثروته أو يحسده على حسن تصرفه، ويعلم أيضا أن بوب أقرب المقربين إليه يطمع فى ثروته، وبداخله يتمنى موته ليحصل على هذه الثروة، لذلك خبأها بهذه الطريقة. وبوب يبقى معه فى الشقة، طامعاً يوماً ما أن يعرف أين يُخبّئ أمواله.

منذ علم أخينا أن المهمة المنسوبة إليه قد تقضى على حياته تسرَّب القلق والخوف إلى نفسه، وأصبح ينام قليلاً بل يستيقظ

أثناء النوم ويذهب للتبول عدة مرات. فى الماضى كان لا يخشى الموت، منذ أن بلغ العقد الرابع، بدأ يساوره القلق والشعور بالكبر، وهو الذى تدور فى رأسه أفكار البطولة والزعامة ويحلم بالشهرة والتوسع فى المنزل.

أخذ يفكر فى الأمر بكل جدية، فقرر الانسحاب من هذه المهمة، ولكنه أدرك أن الانسحاب ليس بهذه السهولة، ولابد من عذر قوى يجعلهم يتركونه وشأنه، والعذر المناسب قد يكون الصحة، ولكنه أعرب للرجل الأحمر أنه بصحة جيدة، بجانب أن لديهم الأطباء المتخصصين وقد ينكشف أمره. أخذ يبحث فى رأسه عن فكرة يستطيع بها أن يفلت من هذه المهمة.. قطع بوب حبل أفكاره عندما سأله:

- أنا أريد نقوداً.

وهنا عثر على الفكرة.. فابتسم وقال: وجدتها.. وقال لبوب: شكراً يا بوب.

وأعطاه بعض النقود وكان لطيفاً معه للغاية، ورحل الأخير متعجباً وسعيداً فى نفس الوقت، والعجب لأنه تعامل معه بكل أدب وطيبة، والسعادة لحصوله على المال بهذه السهولة.

أمّا أخينا فقد عثر على الفكرة التى سوف تخلصه من هذه المهمة أو هكذا ظَنَّ. كانت الفكرة تتلخص فى أن يقوم بإرسال خطاب لهم معربا عن احتياجه الشديد للمال قبل الاختبار الأخير، لأنه أدرك أن عزرائيل قد يكون حليفه فى هذه المهمة وقد تنتهى حياته، لذلك وَدَّ أن يتمتع بالمكأفاة كلها قبل الرحيل، وبما أن الموت قادم فلابد من أن يتمتع بحياته قبل لقاء ربه. وقال لنفسه مبتسما: "وبالطبع سوف يرفضون".

فى ليلة عرس شنيدَر وشربات، كان أخينا يرقد علـــى ســـريره يرتدى نظارته الطِّبية ويتصفح كتاباً عن عالم الحيوانات، يؤمن بأن أعداءه ما هم إلا مجموعة من الحيوانات ولكى يفهم عقلياتهم أخذ يطلع نفسه على كل ما يخص الحيوانات، أصيب بملــل وإحبــاط شديدين، فأزاح الكتاب إلى جانبه وخلع نظارته، وشرد عقلــه فى أشياء كثيرة وأحلام كبيرة تمنى تحقيقها ولكن بدت بعيدة المنال.

دخل عليه بوب وسأله إذا كان يريد شاياً، رفض، فسمعا طرقاً شديداً على الباب، استغربا، ونظر كلٌ منهما للآخر فى استغراب شديد.. منذ أن سكنا معاً هذه الشقة والخوف حليفهما. نهض من سريره وسأل بوب:

– انتظر.. من تعتقد يأتى لنا فى هذه الساعة؟

– لا أدري.. هل تنتظر أحداً؟

– لا.. اذهب وافتح.

تابعه فى حذر شديد، فتح الباب فوجد أمامه شربات بملابــس العرس، تعجَّب، ابتسمت له ابتسامة عريضــة متجاهلــة بــوب وسألت وهى تلف حول نفسها:

– ما رأيك فى ملابس العرس؟

– هل فقدت عقلك؟ ماذا أتى بك إلى هنا والليلة ليلة عرسك؟

– كنت سوفَ أفقد عقلى فعلاً لو تزوَّجْتُ من هذا القرد.

دخلت إلى غرفة نومه وهو يسير خلفها ببطء ذاهــلاً.. ونفــر بوب من وجودها وتابع خطواته وسأله:

– طبعا تريد منى أن أرحل عن المنــزل لبضع ساعات.

– اذهب إلى الجحيم.. افعل ما تشاء.

وأغلق باب غرفة النوم عليهما وهى تخلع ملابسها فسألها:

– ماذا تفعلين يا شربات؟ أريد أن أفهم!
– أوْقَعْتُ الأحمق فى شر أعماله.. أنا تلميذتك.. لم تفهم بعد.
– ولكن هذا خطر.. كان لابد أن تبقى فى منـــزلك الليلة علـــى الأقل.
– أنت تخشى على نفسك فقط.. ولا تبالى بي.
– لا.. أنا أريد أن أفهم ما يدور فى عقلك حتى نستطيع أن نعمل معاً.. وقلت لك من قبل لا تتخذى قراراً دون اللجوء إلىّ أولا.
انتهت من خلع ملابسها ووقفت أمامه عارية تماما، ثم قفـــزت على السرير بخفه شديدة ورغم ذلك اهتز السرير بشدة، وقالت:
– لا وقت للكلام.. الليلة ليلة دخلتي.. تعَالَ يا حبيبي.
اقترب منها فَلَفَّتْ ذراعيها حول رقبته وهو يقول:
– والأموال!! أموال الغبي.. هل سنتركها هكذا؟! بهذه الأمـــوال نستطيع أن نعيش فى الثلث الأول من الحى كـــالملوك فى العهـــد القديم. هذه أحلامى وأنت معي. لا أحد يفهم قيمة باب الفتـــوح الأثري، أريد أن أهدم كل المبانى الحديثة الـــتى بجـــواره وأمامـــه وحوله.. وأشيد كازينوهات وبارات وأسواقاً سياحية ومسارح.. سوف أجعل هذه المنطقة قطعة من الجنة.
هؤلاء لا يفهمون أو يقدرون قيمة المكان التاريخي.. وربما يـــأتى لهم شيخ بفتوى مجنونة فيهدمون هذه الآثار.
– ما يعجبنى ويجعلنى مغرمة بك.. هو أنك تعرف كيف تحلـــم.. وسط كل هذه الأشواك ونيران ومعارك الحي.. تحلم.
– والآن بعد ما فَعَلْتِ الليلة مع شنيدَر.. أخشى فى المســـتقبل أن تسرقى أحلامي.
– لا يا حبيبي.. أحلامى تختلف عن أحلامك.

وتعانقا.. وهو مازال يَخْفَى عليه أنها تبتسم فى وجهه وترقد معه وفى عقلها تدبر له مكيدة، وتستغله جسديّاً وعقليّاً وأنّ يوم فرحها الحقيقى يوم العثور على كنـــزه. منذ يوم اغتصابها مـــن شـــنيدَر وهى لا تحب سوى نفسها وتُكِنُّ له كرهاً شديداً ظل يزدادَ وينمو كل يوم باكتشاف جديد يعرى حبه لمصلحته الشخصـــية وعـــدم مبالاته بالآخرين.

كانت تعترف لنفسها أنها تحب مجامعته، هو خبير فى هذه الأمور ويعرف كيف يجامعها، وعلى دارية تامة بمطالب جسدها، ورائحة فمه طيبة وقبلاته لها مذاق خاص يبعث النشوة ويحرِّك الشـــهوة فى داخلها، يتعامل مع جسدها برفق شديد وحساسية بالغة ويستخدم كل أعضاء جسده فى المجامعة ولا يتركها إلا وهى مكتفية وجاهزة للنوم.

أمّا شنيدَر، فهو شرس وعنيف، ورغم ذلك أحبـــت مجامعتـــه أيضا، دائما ما كان يحاول أن يثبت رجولته بقسوة قضيبه.. يرفع قدميها لأوقات طويلة ولا يعرف فى ممارسة الحب ســـوى ذلـــك. أحبَّتْ قسوة قَضيبه ولكنها رفضت تقبيله من الفم أو حتى النظـــر فى وجهه أثناء المجامعة، كانت تغمض عينيها وتتخيل أخينا مثلمـــا تمنت وهى ترقد معه بقسوة قضيب شنيدَر. وكرهت تلك اللحظة التى ينتهى عندها شنيدَر من الممارسة والقذف وينهض بسرعة من فوقها غير مبالٍ بمطالب جسدها، ويطلب منها أن تنـــهض هـــى الأخرى وتستحِم، كانت تكره تلك اللحظة، ولا تلبي، كثيرا مـــا تمنت وحلمت أن تجمع بينهما معاً فى فراشها.

كلفت شربات بانجو واستئناف ليكونا مخابراتها العامة لتعرف ما يدور فى المغارة وعقل شنيدَر لو أمكن، واعدة كـــلا منـــهما بمـــا

تشتهى الأنفس لو عرفا طريق المقبرة.. نهضت فى الصباح الباكر وذهبت للقاء أحدهما للتطلع على آخر الأخبار.

(٥)

عندما استيقظ أخينا ظهراً (كالعادة) ولم يجدها بجواره ارتاح إلى حَدٍّ ما، وذهب إلى الحمام واغتسل بالماء الساخن، وعند خروجه من الحمام سمع طرقات على الباب فنادى على "بوب" الذى كان فى المطبخ يصنع لنفسه كوباً من الشاى ولم يستمع للنداء والطرق معا. فذهب وهو يحمل الفوطة على كتفه معتقداً أن بوب غير موجود بالمنزل، وفتح الباب ليجد أمامه الرجل الأحمر ومعه حقيبة صغيرة فى حجم كف اليد ولكنها أنيقة للغاية، أعطاه إياها، فى تلك اللحظة خرج بوب من المطبخ فلمحهما على الباب، بسرعة اتخذ لنفسه موقعاً مناسباً لرؤية وسماع ما يدور بينهما، فإذا بالرجل الأحمر يقول:

– قطع من الماس قيمتها مليون دولار.. لتضعها مع باقى ثروتك فى العصا. [وبضحكة ساخرة] وَفَّرْنا عليك شراء الماس.. إذا كنت تريد المبلغ "كاش" يصلك فى خلال ساعة لو أحببت.

فتح أخينا الحقيبة وتأمل ما بداخلها، وبدا مستغرباً وقلقاً، وقال وهو غير مُصدِّق نفسه:

– لا.. لا.. هذا أحسن.

– نطلب منك أن تقوم لنا بخدمة مقابل هذا.

– ما هى؟

– إنقاذ صديقك (يعنى أخينا رقم٢) من يد شنيدَر، لقــد وقــع المغفل فى الأسر، لقد حذرناه ولكنه لم ينصــتَ لنــا، عليــك أن تساعده وتخرجه قبل الموعد المحدد أول أكتوبر الثانية ظهرا.

رحل الرجل وهو يلوح له بالوداع وتركه غارقا فى تعاسته حتى أذنه، حزيناً على فشل المحاولة، وشعر بنهايته قادمة لا ريب فيهــا، أغلق الباب ودخل إلى غرفة نومه وأغلق على نفسه بابها، فانتــهز بوب هذه الفرصة وذهب خارج الشقة وأغلقها. تنفّس الصعداء، ولم يصدق نفسه، انتابته سعادة غير عادية، أخيراً عــرف طريــق الكنــز. لم يُصدِّق ما سمع ورأي، فقال لنفسه: "يا ابن الأبالســة تخبئ هذا الكنــز فى هذه العصا التى لا تساوي". أدرك أن مهمته الآن أصبحت سهلة للغاية، هو لا يهتم بهذه الشقة التى تجلب لــه المتاعب والخلافات وقد تقضى على حياته يوما ما آجلاً أو عاجلاً من قبل أحد مجانين المنــزل قبل أن يحقق ما يحلم به. وبعد عــدة دقائق فتح الباب متظاهراً بأنه عائد من الخارج، ولكــى تكتمــل تمثيليته عن عمد أحدث ضوضاء.. خرج على إثرها أخينا غاضــباً ومتسائلاً فى قرف:

– أين كنت يا زفت؟

– كنت عند المكوجى شعبان.

– أين شربات؟

– نــزلت منذ الصباح الباكر.. عندها شغل! [وبابتسامة ساخرة] الشرموطة عندها شغل.. هى ليست مثلنا بتنام لبعــد الظهــر.. خرجت تبحث لها عن مصلحة تخربها وترجع.

– أخرسْ فَمَك.. واذهب لتحضر لى الفطور.

– أحلى فطور لأمير الحي.. أو ملك الحي.. اليوم يومك.

– ماذا تعني؟ هذه اللهجة وراءها سؤال مادي.. أنا أعرفك عندما تُزَوِّق كلامك بالحلوى.
– عشرة جنيهات فقط يا أجمل باشا.
– عشرة جنيهات!! هل جننت؟ تعتقد أننى مدير بنك.. اذهب وأحضر لى الفطور يا أحمق.

بالطبع بوب كان لا يحتاج إلى هذا المبلغ البسيط فبعد فترة قليلة عندما تغفل عين الزبون سوف يملك من الماس ما يجعله يعيش فى رفاهية ما تبقى من عمره، والعشرة جنيهات ما هى إلا قصة ابتدعها حتى يُطَمْئِنَ أخينا ولا يجعله يشك أنه يعلم شيئا، فبدت الأمور طبيعية للغاية.

قبل أن يتناول فطوره شرد بفكره بعيداً، لقد ظن أن هذه الرسالة التى أرسلها لهم سوف تجعله يفلت من هذه المهمة، و ها هى أوقعته فى مهمة أخرى، أخذ يفكر كيف سينقذه؟ قرر أن يذهب لمقابلة الشيخ يونس، وربما يجد عنده حلاً، دخل إلى غرفة نومه وأغلقها على نفسه وبوب له بالمرصاد.. ثم خرج وهو يقول:
– بوب لا تترك الشقة مهما حدث.. وعليك أن تنتبه.
– الفطور.. لقد حضرت لك الفطور.

وانصرف بعكازته دون أن يرد عليه، فانتابه قلق مخلوط بسعادة ربما وضع الكنز بغرفة نومه الآن، لم يحدث من قبل أن نبه عليه هذا التنبيه. فور خروجه، بدأ فى عملية التفتيش بدقة متناهية ومسح شامل لكل ركن من أركان الغرفة، تحت السرير والمرتبة والدولاب والبذل والحقائب. لم يترك قطعة صغيرة أو كبيرة إلا وفتشها، ولكن دون فائدة تذكر، فيئس وأدرك أنه لابد وأن يكون الكنز فى العكازة.

خرج إلى السطح وهو يحمل كوباً من الشاي، ونصف سيجارة كان قد ادخرها من آخر زبون. وجلس يفكر فى طريقة للحصول على الكنـــز، وماذا سوف يفعل به؟

عندما عادت شربات وجدته يجلـــس دون المنظـــار أبصـــرها وأعطاها ابتسامة عريضة فقالت:

– آه.. وراء هذه الابتسامة خبر جيد.

– لقد عرفت طريق الكنـــز..

– حبيب قلبي.

واقتربت منه وحاولت أن تقبله ولكنه صدَّها بعيدا وهو يتلـــذذ بسيجارته قائلا:

– لا يا شرموطة.. أنا لست من أهل القبل.. أنت تعرفين بالضبط مطالبي.

– جواز سفرك وتذكرتك والتأشيرة لأمريكا، سوف يكون كـــل شيء جاهزاً فى خلال أيام قليلة.

– المشكلة الآن أننا نحتاج لبعض الوقت، إلى أسبوع على الأقل.

– دلنى على طريق الكنـــز.. وعندى رجال يحلـــون لـــك كـــل المشاكل والعقبات.

– أريدك أن تدخليه إلى مغارة شنيدَر فى أقرب وقت.

– هذا سهل جدا. أين الكنـــز؟

– سوف تعرفين فيما بعد.. جهزى لى جواز ســـفرى وتـــذكرتى والتأشيرة للجنة. وجلس فى استرخاء شديد على كرســـيه وفـــرد رجليه على آخرها وشد آخر نفس من سيجارته وقال مســـتطرداً باسترخاء شديد: نيويورك.. نيويورك.

– فى خلال أيام قليلة سوف يكون كل شيء جاهزاً.

– وعندها سوف أعترف لكِ بمكان الكنـــز.

(٦)

كان أخينا يجلس عند صابر الفِسّ فى انتظار الشـــيخ يـــونس، طلب من الفِسّ عمل وجبة كفتة بالسلاطة فتعجب الأخير وقـــال فى سخرية:

– ماذا حدث اليوم؟ هل أمطرت السماء أموالاً؟!

– مسكين وحالك يصعب على الكافر.. قلت لنفسى أســـاعدك وآكل من عندك.

– إذا كنت – أنت الكافر – صعب عليك حالي، فربنا يستر على إذن!

– قل لي: لماذا لم تذهب إلى فرح شنيدَر؟

– كنت مريضاً.. أصل الواحد منا، من سن العشـــرين للأربعـــين يبحث عن كل شيء ممتع فى الحياة، الفلوس والشهرة والنســـاء، وبعد الأربعين يبحث عن أفضل طبيب.. والحمـــد لله رب ضـــارّة نافعة.

لاحظا المعلم عرنوس ينهض من كرسيه فى غضب شديد، وسار وخلفه طابور من الناس يحاولون تهدئته وخلفهم جميعا أخينا رقـــم (٣) يتابع بلهفة الهرج والمرج فى الشارع، عقله كان مشغولاً، ومر من أمامهما دون أن يُلقى عليهما السلام، فاستغربا. أنـــزل الفِسّ الطعام على المنضدة أمام أخينا رقم (١) وبعد دقائق معدودة حضر الشيخ يونس وقال بصوت عالٍ:

– احترس يا فس هناك بعض النّاس يحاولون سرقة السعادة منك.

فرد أخينا على الفور وهو يمضغ بعض الطعام:

– من تقصد يا إرهابي؟ فدخل إلى المحل متوجهاً إلى منضدته:
– أنت تعرف بالضبط من هو الإرهابى الحقيقي.
واقترب منه ومد يده على رغيف ووضع به أصابع الكفتة والسلاطة والآخر مندهش ومستغرب من الأمر:
– ما هذا؟ ابتعد.. ألا يوجد أكل فى بيتك؟ هذا هو الإرهاب بعينه.
أخذ يمضغ الطعام، ثم قال:
– أولا: الإرهاب ده من صنع الحكومات الفاشلة أو بمعنى أصح الابن الشرعى للحكومات الفاشلة فى العالم.
ثانيا: وبصراحة يا عزيزى.. طعام البخيل مفيد للبدن ويشفى جميع الأمراض.
– يا فس أَبْعدْ صاحبك عني.. أنت صديقه لأنه يأكل أكل الزبائن، والزَبائن تدفع لك.
قال الفسّ فى سخرية:
– أنتَ فاكِر نفسك زبون.. تأكل عندى مرة فى السنة فتظن نفسك زبوناً.
– أنا مش دافع الحساب يا فس.
– أنت ترزي.. بالله عليك هل القماش الدمور يُصْنَع منه بذلة؟
فرد الشيخ يونس ضاحكا: يصنع منه لباس فقط.
– طبعا من يشهد للعروس.. صاحبك وحبيبك. [ثم همس لهما مستطرداً]: اجلس يا شيخ يونس بجوارى هنا وأنت أيضا يا فس.. أنا أريد أن أتحدث معكما فى أمر هام جدا ولنترك المزاح جانباً الآن.
جلس الاثنان بجواره فقال بصوتٍ خافت:

– بصراحة يا جماعة أنا متأثر جداً على الست الطاهرة.. ولـــذلك يا شيخ يونس أريد منك أن تتوسط لابنها عند شنِيدَر.
فرد الفسّ فى استغراب:
– أولَ مرة تقول كلام حلو فى حياتك.
– أنا كمان مستعد أدفع كل ما يطلب من أموال نظير هذا العمل الإنسانى.
قال الشيخ يونس مستغربا:
– آه.. مادمت قد قلت عمل إنسانى ودفع فلوس. يبقى المســـألة فيها ربح لك.
– يا شيخ يونس أنا أتحدث بجدية وأرجوك، لا تأخذ كلامى مأخذ المزاح.. هل تستطيع عمل ذلك من أجل المسكينة المريضة أم لا؟
– لقد حاولت من قبل ورفض.. ولكن ممكن أن أكرر المحاولـــة.
وفكر قليلاً ثم استطرد متسائلاً:
ولكن لماذا تسألنى أنا أكون وسيطاً عند شنِيدَر؟
– لأنك المفاوض معه منذ هذه الكارثة.
– أليس من الأَوْلَى أن تطلب ذلك من محبوبتك شربات؟.. هـــى صديقته.
فقال الفسّ: صحيح.. هى عندك شوية وعنده شوية.
– هى ألَد أعدائه الآن.. والغبى فعل ما فعل بسببها.
– لا.. هى اللى شجعته على كده. واستطرد الفِسّ: والآن انقلبت ضده من أجل خاطر عيونك.
– يا جماعة.. أنا أريد عمل الخير، تريدان مساعدتى أهلا وســـهلا، لا تريدان مساعدتى تأكدا أننى لن أترك ابن الســـت الطـــاهرة فى خطر، وسوف أفعل ما فى جهدى.

حضر رجل كان يلهث من كثرة العَدْو قائلاً فى صـــوت متقطـــع الأنفاس:

– يا شيخ يونس.. الحق المعلم عرنوس فى بيت الست نجفة ويريد قتلها.. تعَالَ بسرعة.

ترك الشيخ الطعام وهرع بسرعة وخلفه الفسّ تاركـــاً المحـــل لأخينا، الذى أخذ يتمتع ويتلذذ بالطعام والسلاَطة. عاد أخينا رقم (٣) وبدا مرتبكاً وعصبيّاً وعندما شرح لأخينا رقم (١) مأســاته بالإشارة قال له وهو يمضغ طعامه فى تلذذ شديد:

– ليس أمامك سوى خطف ابنه.

(٧)

مَرَّت الأيام سريعة لكثرة الأحداث فى حياة أخينا، وفشلت كل محاولاته لإخراج أخينا رقم (٢). لقد كلف شربات بأن تســاعده وتجد له حلاً حتى لو كلفه ذلك مبلغاً طائلاً، استغربت الأمر وبات الفضول علامة مميزة واضحة على وجهها فى تلك الفتـــرة، وودت من صميم قلبها أن تعرف سر هذا الاهتمام الزائد، إنهـــا تعرفـــه جيدا، فهو لا ينفق ببذخ إلا على نفســـه، وفى حياتـــه لم يهـــتم بالآخرين، ومنذ أن عرفته لم تَرَهُ يوماً ما ساعد أحداً أو قام بعمـــل خيري، ورغم ذلك وعدته، كان من الممكن أن تساعده فى الحال، لكن بوب نبه عليها ألا تتصرف من نفسها وأن تنتظر تعليماته إذا رغبت فى الكنـــز. فى الفترة الأخيرة لم تتردد عليه إلا قليلا وسعد أخينا بذلك ليمحو أى شبهة عنه رغم أن علاقتهما كانت واضحة وضوح الشمس لجميع أهل الحي.

فى صباح اليوم قبل الأخير لموعد الاختبار كان أخينا مصاباً بقلق شديد ولم يستطع أن ينام ليلته، كان صباحاً حارّاً جــداً، تصــبب عرقاً وأخذ حماماً بارداً عدة مرات ليُهدّئ من حالتــه. وعنــدما اتصلت به وأخبرته أنها استطاعت أن تُخْــرِجَ أخينــا رقــم (٢) وسوف تقابله ساعة الغروب لتأخذه لمكانه، ارتاحت أعصابه قليلاً ولكنه اتخذ الحذر أو بمعنى أدق شم رائحة الخيانة.

كان بوب يلازمه كظله فى الفترة الأخيرة، وتأكد من أن العصا تحمل الكنــز.. لقد شاهده عدة مرات يأخذها معه إلى الحمــام..

حضرت شربات وقالت له:

– هيا بنا الآن لتتَسَلَّم بنفسك ابن الست الطاهرة.

– ممكن بوب يكون معنا؟

ابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت ساخرة:

– المكان مظلم وسوف نرى أسنانه فقط.. ها.. ها

فرد بوب بابتسامة ساخرة من تحت الضرس:

– دمك خفيف يا شرموطة.

أخذهما إلى مكان خلاء بين المقابر والمغارة، وفى الطريق أخــذ بوب يصوب نظرته على العكازة كالصقر على فريسته، وأخينا فى حالة قلق شديدة، وعند وصولهم إلى المكان المقصود كان الظــلام قد حلّ. توقفت، وقالت لهما:

– علينا الانتظار هنا.

جلس بوب على حجر كبير على مقربة منه وهو يضع يديــه فى جيوبه، وجلست شربات على الأرض وأشعلت سيجارة، وأخينــا لم تتوقف قدمه عن السير ذهاباً وإياباً بينهما، متردداً وقلقاً، ويشم

رائحة الخيانة تفوح من جهة ولكنه لا يعلم بالضبط من أين؟ ضغط على عكازته بشدة.. وقال فى عصبية شديدة:
– سوف ننتظر هنا كثيراً؟

فظهر ضوء كشاف كبير على بعد أمتار معدودة، ضوء مكثف انعكس على وجه أخينا، فأغمض عينيه من قوته، وأتته من الخلف ضربة قوية طرحته أرضاً، والأخرى أفقدته الوعي، واقترب بانجو الذى كان يحمل الكشاف، واستئناف بجوار أخينا المطروح أرضاً. انقضَّ بوب على العكازة بسرعة وقال وهو يضحك ضحكة متقطعة:

– ها.. ها.. أخيراً ترك أخى لى ذكرى من رائحته.

همس استئناف فى أذن شربات التى كانت تجلس على الأرض وتستمتع بسيجارتها فقال:
– عَرَفْتُ طريق المقبرة.
– أين؟
– خلف منزله.. توجد مقبرة وحيدة عليها ورود حمراء وبيضاء.. أنا لا أستطيع ترك شنيدَر الليلة.. انتظرينى فى الصباح إذا أردْتِ المساعدة.
– شكراً يا استئناف.. غداً سوف يكون جميلاً.. وكل ما تشتهى نفسك الليلة أخبرنى به فى الغد.. وسوف أنتظرك على أى حال.

وحمل الاثنان (بانجو واستئناف) أخينا وذهبا به نحو المغارة، وعندما وصلا إلى بابها، تأكَّد بانجو من رجاله بالخارج ونظر استئناف من العين السحرية بالداخل وقال:
– الدار أمان.

فتح بعض الرجال الباب ودفعوا بأخينا إلى الداخل ثم أغلقــوا الباب على الفور.

(٨)

أفاق أخينا من غفلته على إثر الدفعة القوية داخل المغارة، فوجد نفسه فى ظلام دامس. خَطا قليلاً فاصطدم بأجساد الْتَحَمَ بعضــها ببعض. سمع صوت الراوى وصداه دَوَّى فى أذنه كالرعد، كــان يقف أمام الميكرفون على خشبه المسرح يقول:

يا سادة يا كرام، سار الرجل بعربته فى الصــحراء.. وفى الظــلام الدامس توقف وخرج من سيارته ثم أشعل سيجارة وأخذ يفكر فى الأمر.. أن يعود للعاهرة (هذه القصة الناقصة التى لابــد لهــا أن تكتمل) أم يسير للأمام؟ حدث نفسه قائلاً: "لقد طردت من بلدتى بسببها.. وأهل بلدتى لخبطت موائدهم فأكلوا أكل الحمير وأكلت الحمير أكلهم بسببها. إذن هى سبب كل المأساة.. العــاهرة هــى سبب كل الكوارث" وعندما انتهى من تدخين سيجارته عــاد إلى داخل عربته مقرراً مع نفسه قتل العاهرة قائلا: "كان لابــد لى ألا ألهث بحلمى الكبير خلف امرأة عاهرة.. لابد من قتل العاهرة" ولم يجد مفتاح السيارة.

صرخ أخينا رقم (١) صرخة قوية دَوَّتْ فى المكان كله:

– أين أنا؟ من أنتم؟ أين أنا؟ أنا لا أعرفكم.

خرج صوت من الظلام يرد:

– اخرس، نريد أن نستمع لباقى القصة.. أكمل يا راوي

فاستطرد الراوي:

– صرخ الرجل صرخة قوية ولم يصدق نفسه، أخذ بسرعة يبحث عنه فى الظلام.. لكن دون فائدة تذكر.. ومن بعد أبصر شعاع ضوء بسيط على مسافة بعيدة.. سار نحوه.

صرخ أخينا غير مُصدِّق نفسه وهو يتحسس فى الظلام:

– أنا فقدت بصري.. ماذا حدث؟ بوب.. شربات.. أنتم فين؟ كنت أشم رائحة الخيانة.. أين أنا؟ أين أنا؟

خرجت أصوات ساخرة تقول:

– هل وَقَعْتَ أم أن الهوى رماك؟

– احترس من المعاكسة فى الظلام يا فتي.

فرد عليهم وهو يلامس أجساداً مزدحمة محاولاً العبور وبدت وكأنها متراكمة بعضها فوق بعض وأيْد تحاول لمسه وهو يبعدها:

– من أنتم؟ أنتم ناس لا أعرفهم.. إياكُم أن يلمسنى أحد.. أنا أسمع أصواتاً ولكنى لا أرى أحداً. الأصوات جننتنى.. هل أنا جننت؟ أم أصبحت ضريراً ولا أعي؟ أريد مساعدة. الأصوات جننتني.

تعرَّفَ أخينا رقم (٢) على صوته، فتركه، آجلاً أو عاجلاً خطوته سوف تأتى به إليه.. شعر بارتياح شديد لوجوده.. فوجوده يعنى أن المعجزة سوف تحدث ويتركان المغارة.

– ماذا حدث؟ أين أنا؟

– اخرس.. أكمل لنا يا راوى ماذا حدث؟

– المهم يا سادة يا كرام.. سار الرجل نحو شعاع الضوء لساعات طويلة حتى وصل.. ووسط الأضواء الساطعة المتلألئة كالنهار.. أخذ المغفل يبحث عن مفتاح سيارته. قال الراوى مستطرداً فى عصبية شديدة وصوت عالٍ متسائلاً:

لقد فقد المفتاح فى الظلام ويبحث عنه فى النور.. هل سيجده؟ بالطبع لا.. كان لابد له أن يتحمل ويبحث مع نفسه عن المفتاح فى الظلام.. وها هو يهلك نفسه فى النور باحثا عن مفتاح فقده فى الظلام.

كان لابد له ألا يلهث بحلمه الكبير خلف امرأة عاهرة. وفى بلدته الآن لخبطت الموائد فأكلوا أكل الحمير وأكلت الحمير أكلهم.

ضحك أخينا رقم (٢) ضحكة عالية ساخرة عندما اقترب منه وقال:

– أنت مصمم لكل الأزياء وترزى درجة أولى.. وتكون نهايتك عند شنيدَر.

تعرَّف على الصوت فقال:

– من؟ غير ممكن!! ابن الست الطاهرة.. أنا فى المغارة إذن. أين أنت؟ خذ بيدي.

ساعده أخينا رقم (٢) حتى وصل إليه وجلس بجواره وقال:

– نعم.. آخر شخص أتوقع وجوده معنا هنا هو أنت.

– لقد حضرت لإنقاذك وها أنا أقع رهينة.

– هل شنيدَر بطل فعلا وأنا لا أعرف؟

– لا.. غَيَر ممكن.. غير ممكن أن يكون شنيدَر بطلاً.

كاد أن يفلت لسانه ويُصَرِّح بأنه هو الَّذى جعل منه مجرماً من الطراز الأول وليس بطلاً، ولكنه أمسك لسانه وضرب بيده بعصبية شديدة على الحائط. حضر إليهما الراوى وأشعل شمعة صغيرة فاستطاعوا أن يرى بعضهم البعض، وأبصر الراوى أجساداً عارية ملتحمة فى حركة غريبة وأصواتاً خرجت بسرعة تصرخ به.

– أطفئ الشمعة يا راوي. أنت رجل مشاكس تريد لنا الشقاء من رجال شنيدَر.
فلبى الراوى مطلبهم، بعد أن تعالت الأصوات، وقال أخينا رقم (٢):
– ماذا أوقع بك معنا.. وأنت خبير فى هذه الأمور؟
– أوقعتنى الخيانة.. شربات.. لقد طَلَبْتُ منها مساعدة لإخراجك من هنا.. وها أنا معك الآن. وأنت كيف وقعت هنا مع جرابيع ومجرمى الحي؟
– هذه الحياة سخيفة.. عاهرة ولكنى أحببتها.
– الحياة يا عزيزى مثل الشطرنج له قوانين تمنعك أن تتحرك على هواك وفى نفس الوقت يعطيك حرية الاختيار أن تلعب ما تشاء.. والمكسب فيه لمن يعمل حسابات بعيدة المدى تفوق حسابات الخصم.
– الشطرنج ليس به مصادفات مثل الحياة.
– بالعكس مصادفته هو الخصم الذى يجلس أمامك ولا تعرف طريقة لعبه.. هل هو مدافع، هجومي، تكتيكي، عنيف، شرس، مسالم؟ طريقة لعب الشطرنج تظهر شخصية اللاعب فى الحياة.
– هل الشطرنج يعرف المشاعر كالحب والكره؟
– طبعا.. قطع الشطرنج.. هناك شخص مثلا يحب الوزير ولا يفرط فيه بسهولة.. بعكس العساكر يجدهم كثيرين فى الرقعة فيضحى بهم بسهولة معتقدا أن ذلك سوف يجعله فى موقف جيد.
قال الراوي:
– لابد للاعب أن يحب كل القطع ويحافظ عليها ليكسب المباراة.
رد أخينا رقم (٢):

– لابد أن يعرف قوانين اللعب أولا.. هل رأيتم من قبل رجـلاً لا يعرف قوانين اللعب ويكسب مباراة؟
رد أخينا رقم (١) قائلاً:
– الحسابات.. حسابات بعيدة المدى مع تنظيم جيـد.. تكسـب المباراة.
– لماذا لم تقم بعمل حساباتك قبل أن تقع فى فخ شنِيدَر وتصـبح معنا فى الظلام؟
– فى الشطرنج أحيانا تقع فى مأزق ولكن هـذا لا يعـنى أنـك خسرت المباراة.. أنا مثلا بدلاً من أن أكون اللاعـب أصـبحت قطعة.. والمشاهد للمباراة يعرف من الرابح.
ثم صمت لحظات وقال فى صوت خافت متسائلاً: ولكـن هـل اللاعب سوف يُضَحِّى بى كعسكرى أم يحتفظ بى كوزير؟
ضحك أخينا رقم (٢) ضحكة ساخرة وعاليـة دوى صـوته فى المكان كله قائلاً بصوت متقطع:
– نحن نواجه موتاً مُحققَّاً هنا يا مصمم الأزياء.. واللاعب سوف يضحى بك.. سوف يضحون بنا جميعا لأننا عسـاكر فى الرقعـة. ومشاهدو المباراة يستمتعون فقط عندما يرون القطع تموت وتخرج من الرقعة.

(٩)

بدلا من أن يضع يديه فى جيوبه كالعادة، وضع يداً على العصـا الماسية والأخرى على كتف شربات وسار بكل ثقة، ثقة اللاعب الذى تمكَّن من فوزه فى مباراة لم يتبقَّ منها سوى دقائق معـدودة. سار بجوارها يبتسم ابتسامة خفيفة مطمئناً أن الحياة أخيرا ابتسمت

له، وودع بدوره أيام الفقر والبؤس. شعر بقوته وقدرتـــه دون أن يدرى أن شبحاً كان يتابعهما كظلهما فى خفة شديدة.
– الآن فقط يا عزيزى جاءنى خبر يستحق أن تعرفه.
– ماذا؟
– عَرَفْتُ طريق المقبرة التى يُخبئ فيها شنيدَر أمواله.
ابتسم ابتسامة ساخرة: كل ما يهمنى جواز السفر والتذكرة.
– لماذا لا نقتسم الأموال ونرحل معاً؟
– مثلك يا عزيزتى لا يؤتمن.. من دقائق معدودة غدرتِ وخُنــتِ عشيق وحبيب القلب.. ما مصيرى معك إذن؟! عــدوَ الأمــس صديق اليوم.. وحبيب اليوم على المقصلة غدا.
– مصلحتنا واحدة، أنت تهمك الأموال.. وأنا أيضا.
– أنا أريد أن أحيا حياة أفضل.. ومعك الحياة لا طعم لها، كلــها مظاهر كاذبة وخطر.
– على أى حال جواز سفرك وتذكرتك بمنــزل شنيدَر فلنذهب إلى هناك والمقبرة التى بها أمواله خلف المنــزل.. ولكن لابــد أن أعرف أولاً أين الكنــز.. أين الكنــز؟
– فى يدي. وهو يرفع العصا إلى أعلى.
– لا أفهم!
– دعينا نُلْقِ نظرة للتأكد.. أشعلى الكشاف.
وتشعل الكشاف وتُصَوِّبه نحو العصا فيلفها من المنتصــف لفــة صغيرة فتنقسم إلى اثنين، ينظر بداخلها ليرى قطعاً مــن المــاس، وتسرع شربات بالنظر هى الأخرى فيصيبها مَسٌّ مــن الدهشــة والعجب فتمسك رأسها خوفا من دوخة قد تصيبها فتقــع علــى الأرض، وبينما هو يعيد العصا كما كانت تبلورت فى رأسها أفكار

شيطانية. دخلا منزل شنيدَر، وهو يتابعها فى حذر فأخرجت له جواز السفر والتذكرة وأعطته إياهم، ثم حملت فأساً وخرجت من الباب الخلفى فتابعها متسائلاً:

- إلى أين؟

- سوف تساعدنى فى فتح المقبرة.

وصلا إلى المقبرة فأشعلت الكشاف وأعطته الفأس قائلة:

- هنا.. بهذه المقبرة ترقد الملايين.. احْفُرْ.

أخذ يحفر ويزيح التراب من على القبر، خلع حزامه ثم ربط العصا حول قدمه بالحزام خوفا من أى خدعة.. فضحكت ساخرة:

- لا تَخَفْ..

تجاهلها وأخذ يحفر بقوة وبسرعة لينتهى من هذه المهمة التى بدت غامضة، وعندما انتهى من إزاحة التراب، وجد لوحاً خشبياً يغطى القبر، رفعه وهو يتصبب عرقاً، على الفور سلطت الضوء إلى داخل المقبرة ليريا حقيبة سوداء منتفخة، نظر كلٌ منهما للآخر باستغراب وسعادة فى نفس الوقت، ودون وعى وجد نفسه يهبط إلى داخل المقبرة، فاقترب الشبح من المكان بخفة وبطء شديدَيْن، أمسك بوب بالحقيبة وصعد بسرعة وهو يحملها فى يده، تناولتها منه وهى تساعده على الصعود، ثم خرج وهو ينفض ملابسه من التراب، فتحتها بسرعة فوجدتها ممتلئة برزم من الأوراق النقدية، فنظر كلٌ منهما للآخر فى فرحة وسعادة غير مُصَدِّقَيْن أنفسهما، خلع حزامه الذى يربط العصا وأعاده إلى سرواله، اقترب الشبح خلفه وبهدوء شديد سحب منه العصا، وعندما التفت للخلف، إذا بالشبح يضربه على رأسه ضربة قوية ثم يدفعه بشدة نحو القبر المفتوح فيسقط بداخله وهو يصرخ، وعندما ارتطم بالأرض داخل

القبر فقد وعيه، وبسرعة قام الشبح بوضع اللوح الخشبى فـوق المقبرة، ووقف فوقه ليتأكد من عدم صعوده مرة أخرى، فتقتـرب منه شربات وتقبله على شفتيه، فينحنى أمامها (كجنتلمـان أمـام امرأة جميلة فى فيلم فرنسي) ويقبل يدها برقة شديدة وببحة صوته العميق وبطء شديد يقول:

– سيدتى الجميلة.

ثم يأخذ الفأس ويبدأ فى وضع التراب على المقـبرة، وعنـدما حاولت مساعدته فى إغلاقها على بوب حَيّاً، وقف فى كـل أدب وانحنى مرة أخرى وقال:

– قطتى الجميلة.. لا توسخى يدك الجميلة الناعمة بالقـاذورات.. دعينى أقمْ بهذا العمل من أجل أجمل قطة فى العالم.

أعطته نظرة شيطانية، امتزجت فيها معـالم الخبـث والحـب والشراسة، أفاق بوب من الخبطة فأرسل صرخة استغاثة مكتومـة استطاعا أن يسمعاها:

– النجدة.. شربات.. شربات.. هل تسمعني؟ النجدة.

جلست على الأرض وأشعلت سيجارة فى هدوء شديد وهـى تراقبه مرتديا الزى الرسمى ويردم ما تبقى من تراب على القبر وهو يقول:

– هل تعلمين يا عزيزتى أن هذا العالم قذر جدا؟.. لا أحد يبالى بنا نحن أصحاب الحضارة.

– نعم.. أنت على حق يا عزيزى مصطفى سليم.

توقف عن العمل وخلع قبعته ومسح عرقه وهو يقول:

– كنت أتمنى سماع كلمة حبيبي.. أنت تعلمين أننى رومانسى جدا.

– وماذا يفيد القول وأنت تعلم فى قلبك أنك محبوبى الوحيد.

ارتدى قبعته وعاد للعمل وبوب من الداخل مازال يرسل صرخات استغاثة مكتومة:

– افتحوا.. افتحوا.. ارحمونى.. أنالم أقصد.. كل ما أردت أن أحيا مثلكم.. فى بلدى كانت أحلامـــى لم تتعـــدَّ الطعـــام والشـــراب والمنـــزل وكوباً من الشاى.. وهنا كان لابد لى ألا أحلم بأكثر من ذلك.

أعرف أننى رجل إفريقى تعيس الحظ لا يَمُتُّ للأحلام السعيدة بصلة فى هذا الزمن.

أرجوكم ارحمونى.. أنا أختنق.. افتحـــوا لي، ســـاعدونى.. أنـــا أموت..

أخذ يساوى التراب على اللوح الخشبى بقدميه بثقة عامل بنـــاء محترف يعرف ماذا يفعل وتساءل:

– ماذا سوف نفعل بكل هذه الأموال؟

– سوف نغير هذا العالم القذر للأفضل.. سوف نساعد الفقراء.

خرج صوت بوب يصرخ:

– ولو فتح شنيدَر المقبرة ولم يجد أمواله ووجدني.. رجل إفريقـــى يموت من الجوَع والعطش سوف ينقلب العالم رأساً على عقب.

رد مصطفى سليم:

– ما أجمل كلماتك يا حبيبتي.. عن الحب والسلام.

ثم أبصر الحقيبة والعصا الماسية فقال مستطرداً: من اليوم سنشعر بطعم السلام والأمان والحب الحقيقي.

وبوب يواصل صرخاته: سوف يستغل مـــوقفى الحـــرج لـــيعلن أسطورته.. أسطورة شنيدَر.

افتحوا لى قبل أن يعلنَ الموت عن أسطورة جديدة.

بعد أن أحكم إغلاق المقبرة بحرفية شديدة.. قال لها:

– سيدتى الجميلة عندى مهمة أخيرة لابد من القيـــام بهـــا قبـــل الرحيل.

– ماذا؟

– لابد وأن أعطى الأوامر الآن بالهجوم على شنِيدَر.. حتى ينشغل الحى كله بالمعركة ونهرب أنا وأنت فى سلام.

– ألا تخشى رؤساءك فى العمل؟

– لا تقلقى يا عزيزتى سوف أقول لهم إن شنِيدَر يملك قنبلة وهدد بإلقائها داخل المغارة ولم يكن أمامى سوى عمَل ذلك.

– هل تعتقد أنهم سوف يصدقونك؟

– البُلَهَاءُ من السهل عليهم التصديق أمّا الأذكياء فهم ضـــعفاء فى بلدنا ولا حول لهم ولا قوة.. وعلى أى حال أنا أريد أن أخـــرج الناس من الظلام الدامس إلى النور.. هذا عمل إنســـانى، ألـــيس كذلك؟

– يا إبليس.. ما أجمل أن يكون حبيبى إبليس.

– حبيبتى.. نسيت أننا خططنـــا للـــهرب معـــاً وأن البـــاخرة فى انتظارنا.. إلى عالم أفضل.. عالم الأحلام.. أستراليا؟

– هل الشيطان يعيش هناك؟

ضحك ضحكة متقطعة بصوت عالٍ فَدَوَّى صداها فى المكان كله:

– ها.. ها.. ها..

طبع قبلة طويلة على فمها العذب، تلذذت (كالعادة) وتمنـــت المزيد، فى تلك اللحظة شعر هو الآخر بالرغبة القوية لامتلاكهـــا ولكنه أدرك أنه لابد من إتمام عملياته بأقصى سرعة وقال:

– عليك أن تنتظرى هنا نصف ساعة على الأقل.. سوف أذهب للمغارة.. أو تستطيعين الانتظار فى منزل شنيدَر.

– لا.. سوف أنتظرك هنا.. خذ معك الحقيبة والعصا.

– لا ينفع يا حبيبتي.. أنا ذاهب فى مهمة رسمية.. سوف أعطى أوامرى وأعود إليكِ على الفور.

– فى انتظارك.

وذهب بسرعة نحو المغارة، فنهضت من الأرض وأخذت تنفض ملابسها، وسمعت صرخات بوب المتواصلة من القبر بصوت خافت:

والانتقام يرتسم على ملامح الكثير منّا.. أنا لا أريد الأموال.. فقط أريد أن أتنفس.. افتحوا لى.. ولا تجعلوا من موتى أسطورة يستغلها شنيدَر لنفسه

لقد عشت الفقر والقحط والجوع فى إفريقيا ولا يصح أن تكون نهايتى هكذا لمجرد حلم بسيط. يوم واحد حلمت فيه حلماً جميلاً مثلكم.. حلمت بارتداء بذلة جديدة وطعام جيد وشراب نظيف وسيجار وعربة ونزهة على البحر والاسترخاء.

ودت أن تصم أذنيها ولكنها لم تستطع، كانت تكره الأسرة بأكملها، تكرههم كرهاً شديداً وتخشى منهم وتحذرهم، ولكن فى تلك اللحظة شعرت لأول مرة أن صوت بوب كان صوتاً آخر، صوتاً مختلفاً، بدا وكأنه صوت قادم من أدغال إفريقيا، صوت يبحث عن منفذ للحياة:

يبدو أن حلمى كان أكبر مني.. وكان لابد لرجل إفريقى مثلى أن يحلم فقط بالعيش. ارحمونى لا تجعلوا من أسطورتى أسطورة يأخذها شنيدَر لنفسه. النجدة.. أختنق.. أنا أموت.. النجدة.

بدأ صوته ينخفض تدريجيا، فحملت الحقيبة وتعكّزَتْ على العصا وسارت بخطوات بطيئة ولكنها فى ثبات، ترك حذاؤها أثراً على الأرض، وبالعصا وضعت علامة وخَطّاً بالمكان، هذه الآثار بدت وكأنها سوف تظل لفترة طويلة علامة على الأرض.. ربما سنوات.. سنوات طويلة.. أو ربما للأبد.

عاد مصطفى سليم إليها بعد ساعة، لم يجدها بالمكان ولم يجد لها أثراً، والظلام لم يساعده على رؤية خطوات سيرها، التفت حول نفسه عدة مرات وهو ينادى عليها بصوت عال، ذهب لمنزل شنيدَر وفتش عنها، بعد فترة قليلة أدرك أنها خَدَعَتْهُ ورحلت بمفَردها، فحدث نفسه قائلا: "هذا درس جيد لى، كان يجب أن أحترس من هذه الشرموطة كما يطلق عليها المرحوم بوب، بعد كل ما فعَلْتُه معها ولمصلحتها، ترحل هكذا بكل شيء لنفسها، يا لسخرية القدر، كنت أعرف أننا نعيش فى عالم قذر، اللعنة، الدنيا ليس لها أمان، صحيح فعلاً كما يقول الشيخ يونس "الدنيا ليس لها أمان".

وسار فى الظلام على أثر قدميها دون أن يعي.

(١٠)

منذ محاصرة المغارة نالت الحكومة عَدَاءً غير عادى من أهل الحي، وكانوا يدركون أن المعاونة لا تصل كلها للرهائن داخل المغارة، وكان شنيدَر يستغلها لنفسه ولرجاله ليحصن المغارة فبدأت الحكومة فى تقليل المعاونة.

كان الحل الوحيد للحكومة – لتجعله يستسلم هو – تقليل المعاونة، خصوصاً الطبية منها، وبالطبع لم يبالوا بالرهائن بقدر ما

اهتموا بوقوعه وذله ليكون عبرة لمن يعتبر فى الحي. فنالت الحكومة العداء المناسب من أهل الحي. وامتنع أهل الحى من الهجوم على المغارة بشدة، خشيةً على الرهائن المساكين الذين لا ذنب لهم.

كان الكثير منهم قد اكتشف أمر شنيدَر وعرف حقيقته الكاذبة، رغم أنه أثناء الحصار أخذ يطَلبَ من الحكومة مطالب أهل الحى الحقيقية ليكسب عطفهم، فصدقه القليل، ولكن الأغلبية كانت تعى أكذوبته ويؤمنون إيماناً مطلقاً بأن حقوقهم لابد وأن يطالب بها رجل نظيف اليد وبطل حقيقى وليس أكذوبة لمجرم محترف.

عندما وصل الضابط مصطفى سليم إلى رجال الأمن استغل فرصة عدم وجود الشيخ يونس وأعطى أوامره بسرعة بضرب المغارة وإلقاء القنابل المسيلة للدموع. فقاموا على الفور بفعل ذلك، وما إن سمع شنيدَر ورجاله أول طلقة وإلقاء أول قنبلة فروا جميعا فراراً لم ير أحدَ مثله من قبل تاركين أسلحتهم خلفهم. استغرب رجال الأمن ولم يصدقوا ما رأت عيونهم. فى البداية ظنوا أنها خدعة من شنيدَر ليُوقعَ بهم فى مصيدة، ولكن الحقيقة أن شنيدَر قد أدركَ أن هَذه المرة تختلف عن المرات السابقة، فالسيف والَسلاح والحلة لا ينفعون أمام هذا الأسطول. رجال الأمن لم يجدوا مقاومة تذكر، بل وجدوا أنفسهم بلا خسائر وحققوا ما لا يحلمون به وأكثر مما خططوا له بمراحل تفوق الحسبان. وفى دقائق معدودة اقتحم رجال الأمن المغارة وحدث هرج ومرج شديدان واختلطت الأمور وأصيب بعض الرهائن بدوخة على إثر الضوء الكثيف، وخشوا أن يخرجوا من المغارة حتى بعد أن تحدث معهم رجال الأمن أن شنيدَر ذهب بلا عودة، لم يصدقوا أنفسهم، فأمر

الضابط مصطفى سليم بإخراج جميع الرهائن والتأكد من أنه ليس بينهم رجال شنيدَر.

كان بعض البلهاء من أصحاب الأفواه العنترية يعتقدون أن شنيدَر يخبئ فى جعبته شيئا، ولكن فى حقيقة الأمر اكتشفوا بعد عدة أيام أنه كان يختبئ فى المقبرة التى كان يرقد بجواره فيها المرحوم بوب تحاسبه الملائكة.

والغريب فى الأمر أن كثيراً من الرهائن رفضوا الخروج من الظلام، وبدوا وكأنهم عشقوا العيش فى الظلام، حاول رجال الأمن تفريقهم وإخراجهم بالقوة، لكنهم تشبثوا بالمغارة قائلين:

– لن نخرج من هنا إلا بأمر من شنيدَر، لقد جئنا هنا من أجله وسوف نخرج بأمره.

رد أحد الضباط: شنيدَر خلاص مات.

– لا.. هذا مستحيل أنتم تسخرون منا.

– احترسوا يا ناس.. هؤلاء هم أعداء شنيدَر.

– شنيدَر سوف يحاربكم بكل ما يملك يا كفار.. ونحن معه.

– اخرج أنت وهو من هنا.. عودوا إلى منازلكم وعيشوا كما أحببتم.. أنتم أحرار.

خرج الأخوان من المغارة وهما يُغمضان أعينهما من الضوء المتسلط عليهما وأخذا يسيران إلى الأمام:

– نفدنا من موت محقق يا ابن الست الطاهرة.

– وغداً سوف نواجه موتاً محتملا يا مصمم الأزياء ومفصلها.

– اللعنة على الحياة.. ما فائدتها إذا كنا نولد لنموت؟

تابعهما الراوى بخطوات بطيئة وقال فى لغة مسرحية:

- نحن نعيش زمن الموت.. إذا أفلتنا من السرطان يأتى الإيدز وإذا أفلتنا منهما يأتى الإرهاب الذى يطيح - عاطل على باطل - دون هدف واضح.
الحكومات مصاصة الدماء هى السبب الحقيقى وراء إرهاب المواطن العادى. وإذا أفلتنا من هذا وذاك فالطبيعة خلفنا بالمرصاد تُخبّئ لنا كارثة طبيعية كبرى، مفاجأة، يقول عنها البعض إنها الغضب السماوي. حتى الطيور غضبت وبدأت تعطس علينا وباءها.
والغريب فى أمر الموت.. لا يوجد أشنع من مقصلة شنيدَر.
أخذ أخينا رقم (١) يضحك ضحكة عالية دوى صَدى صوته فى المكان كله وتوقف الراوى على آثارها فى مكانه:
- ها.. ها.. ها.. ها..
- ماذا يُضْحِكُك؟
- شربات.. وبوب عندما يكتشفان أن الكنز الموجود فى العصا فالصو. ها.. ها.. أنا أتخيل منظرهما الآن. ها.. ها.. مضحك للغاية.
- سوف تعود لك.. لا تقلق..
- طبعا.. هى تربيتى وتلميذتى ولا تستغنى عني.
وسارا فى طريقهما فتساءل أخينا رقم (٢):
- هل تعتقد أن غدا سوف يكون أفضل؟
- لو نجحنا فى مهمتنا.. وأنقذنا الرجل الكبير فبالطبع سوف تكون الحياة أفضل.
كان أخينا رقم (١) يعنى أنه سوف يستمتع بالأموال والآخر يظن أنه يعنى أن العالم سوف يعيش فى سلام. فالتفت الراوى

للخلف، فرأى طابوراً من الناس خارجين من المغارة وقادمين نحوه، فأخذ يسير نحوهم بطريقة معاكسة وكأنه على خشبة المسرح، وهو يقول فى صوت عال دوى صداه فى المكان كله:

لا يقتل بعضكم البعض من أجل شنيدَر.. ولكن تصدوا لكل ما هو شنيدَر على الأرض.. ها أنا أروى لكم أجمل القصص، هل تسمعونى.. هل تستجيبون لندائي؟ أنصتوا لى جيدا "كان لابد لى ألا ألهث بحلمى الكبير خلف امرأة عاهرة" هل تسمعونى؟ أنا أتحدث إليكم. كان لابد لى ألا ألهث بحلمى الكبير خلف امرأة عاهرة.

هل تسمعونى؟ هل تسمعونى؟ أنا أتحدث إليكم.

ماهر أبو السعود

ملبورن فى ٢٠٠٥/٩/٢٠

صدر للمؤلف:

– محكمة الشرق والغرب	مجموعة قصصية
– حكاية ليلة طويلة	رواية
– أمير المدينة	رواية
– القاهرة باريس ملبورن	رواية